

## الباب الثاني

---

تأثير الأساة على الشعراء الفلسطينيين<sup>(١)</sup> في:

أ- لبنان.

ب- الأرض المحتلة

ج- خارج الأرض المحتلة.

---

(١) ينبغي القول أن تقسيم الشعراء الفلسطينيين في لبنان أو في الأرض المحتلة أو في خارجها، هو تقسيم تقريبي، فالشعراء الفلسطينيون كثيرون التقل، ولذا يصعب الفصل بينهم من الناحية المكانية، ولكننا نأخذ بغالبية الإقامة.



## الفصل الأول

---

تأثير الأساة على الشعراء الفلسطينيين في لبنان



حرب لبنان، وحصار المخيمات، وقتل الأطفال وتشريد الآلاف من بيوتهم، كان له أكبر الأثر على شعراء فلسطين الذين عاشوا المحنة منذ بدايتها، هناك الكثير من الشعراء الفلسطينيين كتبوا عن مأساة لبنان في الداخل، من وسط الحصار، ومن خارج لبنان ومن هؤلاء الشعراء محمود درويش حيث كتب عن المأساة من داخل بيروت ناقلاً صورة كاملة للمرارة والألم اللذين حلا بالشعبين اللبناني والفلسطيني. وتأخذ مثلاً من قصائده وهي قصيدة «بيروت»، هي ملحمة شعرية صادقة تتبع عن نفس معذبة محرومة، وفيها يقول درويش واصفاً مدينة بيروت بالعروس، التفاحة.. الأمان.. الخيمة مفرجاً على تدمير هذه المدينة الجميلة، فيقول:

تفاحة للبحر.. نرجسة الرخام

فراشة حجرية.. بيروت.. شكل الروح في المرأة

وصف المرأة الأولى، ورائحة الغمام.

بيروت من تعب ومن ذهب، وأندلس وشام

فضة، زبد، وصايا الأرض في ريش الحمام

وفاة سنبله، تشرّد نجمة بيني وبين حبيبتي بيروت

لم أسمع دمي من قبل ينطق باسم عاشقة تمام على دمي.. وتنام.

من مطر على البحر اكتشفنا الاسم، من طعم الخريف

ويرتقال القادمين من الجنوب، كأننا أسلافنا تأتي إلى بيروت

كي تأتي إلى بيروت

من مطر بنينا كوخنا، والريح لا تجري فلا تجري، كان الريح

مسمار على الصلصال تحفر قبونا فننام مثل النمل في القبو الصغير

كأننا كنا نغني خلصة:

بيروت خيمتنا

بيروت نجمتنا<sup>(١)</sup>

نلاحظ كثيرًا من جمل المقطع التي تكثف الفجيرة ومرارتها "رائحة الفمام" بيروت من تمب "زبد" وصايا الأرض "وفاة سنبله" تشرّد نجمة ثم انظر إلى الأمل الذي سرعان ما تبخر مع الريح في قوله: "من مطر بنينا كوخنا"، أو قوله «نفني خلصة».

يتابع الشاعر محمود درويش قصيدته بوصف دقيق للحالة السيئة التي أصبحنا نعيشها بعد في بيروت:

سبايا نحن في هذا الزمان الرخو

أسلمنا الفزاة إلى أهالينا

فما كدنا نعض الأرض حتى انقض حامينا

على الأعراس والذكرى

فوزعنا أغانينا على الحراس

من ملكٍ على عرشٍ

إلى ملكٍ على نعشٍ

سبايا نحن في هذا الزمان الرخو

لم نعثر على شِبّهٍ نهائي سوى دمنا

ولم نعثر على ما يجعل السلطان شعبيًا

ولم نعثر على ما يجعل السجنان وديًا

ولم نعثر على شيء يدل على هويتنا

سوى دمنا الذي يتساق الجدران

تنشد خلصة:

بيروت خيمتنا

بيروت نجمتنا

---

(١) محمود درويش/ حصار لمذائح البحر، دار العودة - بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص٨٩.

لاحظ حجم المأساة التي صورها الشاعر، من خلال جمل "سبايا نحن"، الزمن الرخو"، "أسلمنا الغزاة"، وتأتي المفارقة بأن التسليم ليس لعدو، ولكن "إلى أهاليها" لاحظ مرارة المأساة من خلال جمل "نعص الأرض" "دمنا الذي يتسلق الجدران"، ثم لا حظ التوازي الصوتي والاختلاف الدلالي بين ملك على عرش/ ملك على نعش.. فيكون السؤال هل يتساوى العرش مع النعش، ربما يتساويان في بعض المواقف وما أكثرها!!

ثم يجار درويش بالمأساة، ممرضاً بالعرب ونفضه الزائل، فيقول:

عنقوداً من القتلى بلا سبب..

وجئت من بلاد لا بلاد لها

وجئت من يد الفصحى ومن تعب

خراب هذه الأرض التي تمتد من قصر الأمير إلى زنازتنا

ومن أحلامنا الأولى إلى.. حطب

فأعطينا جداراً واحداً لنصيح يا بيروت

أعطينا جداراً كي نرى أفقاً وناقذة من اللهب

وأعطينا جداراً كي نعلق فوقه سدوم

التي انقسمت إلى عشرين مملكة

لبيع النفط.. والعربي

وأعطينا جداراً واحداً

لنصيح في شبه الجزيرة:

بيروت خيمتنا الأخيرة

بيروت نجمتنا الأخيرة

ولا شك أن بيروت كانت خيمة تاوي أولئك الذين نذروا أنفسهم للجهاد من أجل تحرير بلادهم، وهنا نلمح حزن الشاعر، بل بكاءه على فراق بيروت الأم.. الحبيبة، النجمة الخيمة، يبكي الشاعر على التشتت الذي حدث للشعب الفلسطيني بعد حصار المدينة.. إن بيروت حزينة تبكي.. مثلما نبكي على فراقها.. فهي هي بيروت الآن أصبحت

بين المخالب الحاقدة، ولا مدافع عنها إلا من أحبها كما أحب القدس!!

أفق رصاصي تتأثر في الأفق

طُرق من الصدف المجوف.. لا طُرق

ومن المحيط لي الجحيم

من الجحيم إلى الخليج

ومن اليمين إلى اليمين إلى الوسط

شاهدتُ مشنقة فقط

شاهدتُ مشنقة بحبل واحد

من أجل مليوني عنق!!

لاحظ أن الشاعر في المقطع السابق، أورد كلمة «الجحيم» مرتين مكررتين، وهما في منطقة وسطى بين «المحيط» و«الخليج»، بمعنى أن الجحيم يمكث بمخالبه وحوافره في منطقتا العربية، خاصة وسطها، وهو يرمز بذلك لـ «فلسطين» و«لبنان».

ثم يذكر الشاعر الأمة العربية بما حدث للمسلمين في الأندلس:

بيروت! من أين الطريق إلى نوافذ قرطبه

أنا لا أهاجر مرتين

ولا أحبك مرتين

ولا أرى في البحر غير البحر

لكني أحوم حول أحلامي

وأدعو الأرض جمجمة لروحي المتعبة

وأريد أن أمشي..

لأمشي

ثم أسقط في الطريق.. إلى نوافذ قرطبه

ثم يصف الهم والحزن اللذين حلا به حين غادر بيروت في لحظة قصيرة.. كل

الذكريات انتهت في لحظة بسيطة.. ويتذكر الشاعر كل شيء في بيروت مر مر  
ودمار، يذكر نفسه وهو بين موت وحياة، بين يأس ورجاء.. ولكن..

بيروت شاهدة على قلبي

وأرحل عن شوارعها وعني

عالمًا بقصيدة لا تنتهي

وأقول: ناري لا تموت

على الينابيع الحمام

على بقاياها السلام

أطوي المدينة مثلما أطوي الكتاب

وأحمل الأرض الصغيرة مثل كيمس من سحب

أصحو وأبحث في ملابس جثتي عني

فتضحك: نحن ما زلنا على قيد الحياة

وسائر الحكام

شكرًا للجريدة لم تقل أنني سقطت هناك سهوا

أفتح الطرق الصغيرة للهواء وخطوتي والأصدقاء العابرين

وتاجر الخبز الخبيث، وصورة البحر الجديدة

شكرًا لبيروت الضباب..

شكرًا لبيروت الخراب..

تكسرت روعي، سأرمي جثتي لتصيبني الفزوات ثانيةً

ويسلمني الفزاة إلى القصيدة..

أحمل اللفة المطيعة كالسحابة

فوق أرصفة القراءة والكتابة:

إن هذا البحر يترك عندنا آذانه وعيونه"

ويعود نحو البحر بحرياً

لاحظ مرارة الشاعر من خلال جمل كثيرة نذكر منها: «أرحل عن شوارعها، وعني»، «أصحو وأبحث في ملابس جثتي عني»، «ما زلنا على قيد الحياة»، «الطرق الصغيرة للهواء»، «بيروت الضباب»، «بيروت الخراب»، «تكسرت روحي».... إلخ.

ينتقل الشاعر إلى تذكر أرض فلسطين، ويوضح لنا بأن التشرد يطارد الإنسان الفلسطيني، إذ طرد من أرضه فلسطين إلى المناقي المختلفة، وهو يطرد الآن من بيروت إلى منفى آخر وهكذا، لكن الشاعر يؤكد بأن الحق لا يضيع وأن هذا الإنسان سوف يعود إلى وطنه ما دام تصميمه موجوداً.

ترك الشاعر بيروت إلى مدينة جديدة.. يترك السيف والحرب ليذهب إلى السلام، ويأسف الشاعر على هذه الأمة التي لا تستقبل محاربيها كما يحدث عند الغرب حين يتوج الفاتحون، ونرى سخط الشاعر على هذه الأمة اللامية في الملذات حتى أذنيها.. بل يمقتها؛ لأنها أمة نائمة ذليلة، لا تحرك ساكناً ولا توقف قاعداً.

وهذه المدن العربية الهشة لِمَ لَمْ تقدم لبيروت العون والمساعدة؟ الحجر قاتل والشجر حملَ البندقية وقاوم، كل ذرة قاومت.. والأمة العربية في غيابة الجبّ تنمض عينيها خوفاً على خزائنها.. وتعلق المشائق لأبطالها، إن جأروا بمجرد الصراخ يقول:

وداعاً للذي سنراه

للفجر الذي سيشقنا عما قليل

لمدينة ستعيدنا لمدينة

لتطول رحلتنا وحكمتنا

وداعاً للسيف وللنخيل

لحمامة ستطير من قلبين محروقين بالماضي

إلى سقف من القرميد..

هل مر المحارب من هنا

كقذيفة في الحرب؟

هل كسرت شظاياها كؤوس الشاي في المقهى؟  
أرى مدناً من الورق المسلح بالملوك وبدلة الكاكي،

أرى مدناً تتوج فاتحيها

والشرق عكس الغرب أحياناً

وشرق الغرب أحياناً

وصورته وسلمته..

أرى مدناً تتوج فاتحيها

وتصدّر الشهداء كي تستورد الويسكي

وأحدث منجزات الجنس والتعذيب

هل مرّ المحارب من هنا

كقذيفة في الحرب؟

هل كسرت شظاياها كؤوس الشاي في المقهى؟

أرى مدناً تعلق عاشقيها

فوق أغصان الحديد

وتشرّد الأسماء عند الفجر..

عند الفجر يأتي سادن الصنم الوحيد

ماذا نودع غير هذا السجن؟

ماذا يخسر السجناء؟

نمشي نحو أغنية بعيدة

نمشي إلى الحرية الأولى

فلمس فتنة الدنيا لأول مرة في العمر..

بوركت الحياة

وبورك الأحياء

فوق الأرض

لا تحت الطفافة

تحيا الحياة!!

تحيا الحياة!!

ويتابع محمود درويش قصيدته الملحمية الرائعة قائلاً:

ضُر ما يلي:

بيروت "بحر - حرب - حبر - ريح"

يبدأ درويش في شرح كيف هي بيروت، بحر، وكيف هي حرب وكيف هي حبر، وريح،

فيقول:

البحر: أبيض أو رصاصي، وفي إبريل أخضر،

أزرق، لكنه يحمُرُ في كل الشهور إذا غضبَ

والبحر مال على نمي

ليكون صورة من أحبّ

واستفسار الشاعر عن بيروت له دلالة، فهي في نظره البحر الهادئ الموج الدافئ، وهي أيضاً الموج الغاضب الهادر في ساعات الغضب، بل يصبح لونه أخضرَ في شهر إبريل.. يتلون البحر بعدة ألوان، وهذه بيروت البيضاء الجميلة، السوداء الحزينة من جراء القصف العشوائي.. فهي أغنية القرية.. والضياح.. والتشرد.. بفقدان بيروت فقدا الأم التي عطفنا علينا بعد فلسطين.. والحرب في نظر الشاعر هي الهاجس الذي يهدد كيان كل فرد.. ولكن الفلسطيني اعتاد على حمل السلاح ومواجهة الحروب، فأصبح معرضاً لها أينما ذهب..

الحرب: تهدم مسرحيتنا لنلعب دون نص أو كتاب

والحرب: ذاكرة البدائيين والمتحضرين.

والحرب: أولها دماء

والحرب: آخرها هواء

والحرب: تتقب ظلتنا لتمر من باب لباب

إذن الحرب هدم وتدمير، وشريعة الغاب، وهي قانون البدائيين، وهي أيضاً - للأسف - راسخة في ذاكرة المتحضرين، الحرب دماء وصراخ، يظن المتحاريون أنها - الحرب - سبب الحرية، ولكنه ظن خاطئ، ورغم باطل.

أما الحبر في رأي الشاعر فهو للأغاني وللمتفرجين وللمستسلمين من العرب:

الحبر: للفصحى، وللضباط، والمتفرجين على أغانينا

وللمستسلمين لمنظر البحر الحزين

الحبر: نمل أسود، أو سيّد..

والحبر: برزخنا الأمين

أما الريح فهو المشرّد لنا.. وبيروت فيها التجارة الواسعة منذ زمن قديم.. وأثناء الحرب أصبح الاستغلال للسلع ظاهرة واقعية يعاني منها الإنسان في بيروت، فالريح استغلال وهو وجه قبيح آخر للحرب وما تخلفه لنا من مساوئ، فيقول:

والريح: مشتق من الحرب التي لا تنتهي

منذ ارتدت أجسادنا المحرّاث

منذ الرحلة الأولى إلى صيد الظباء

حتى بزوغ الاشتراكيين في آسيا وفي أفريقيا!!

والريح: يحكمنا..

يُشرّدنا عن الأدوات والكلمات

يسرق لحمنا

ويبيعه

لاحظ أن كلمات (بحر - حرب - حبر - ربح) التي وصف الشاعر بيروت بها، هي

في حقيقته كلمة واحدة مكونة من ثلاثة أحرف (ب - ح - ر)، ولكن شاعرنا بَدَّل الحروف، وغيرَ مواضعها فكانت هذه الاشتقاقات متغيرة الدلالة، ومن ثم كان قصد الشاعر أن بيروت مدينة تغيرت أحوالها وتبدَّلت.

ويتابع محمود درويش وصفه لمدينة بيروت وحصارها وخروج المقاتلين الفلسطينيين منها بأسلوب مليء بالحزن والحسرة والنقمة على الغازي.. فيقول:

أحرقنا مراكبنا . وعلّقنا كواكبنا على الأسوار

نحن الواقفين على خطوط النار نعلن ما يلي:

بيروت تماحه

والقلب لا يضحك

وحصارنا واحه

في عالم يهلك

سنرقص الساحة

ونزوّج الليلك

أحرقنا مراكبنا .. وعلّقنا كواكبنا على الأسوار

لم نبحث عن الأجداد في شجر الخرائط

لم نساخر خارج الخبز النقي وثوبنا الطيني

لم نرسل إلى صدف البحيرات القديمة صورة الآباء

لم نولد لتسأل: كيف تم الانتقال الفذ مما ليس عضوياً إلى العضوي؟

لم نولد لتسأل..

قد ولدنا كيفما اتفق

انتشرنا كالنمال على الحصيرة

ثم أصبحنا خيولاً تسحب العربات..

نحن الواقفين على خطوط النار

أحرقنا زوارقنا، وعانقنا بنادقنا  
سنوقظ هذه الأرض التي استتدت إلى نمنا  
سنوقظها، ونُخرج من خلاياها ضحايانا  
سنفسل شعرهم بدموعنا البيضاء  
نسكب فوق أيديهم حليب الروح كي يستيقظوا  
ونرش فوق جفونهم أصواتنا:  
قوموا ارجعوا للبيت يا أحبينا  
عودوا إلى الريح التي اقتلعت جنوب الأرض من أضلاعنا  
عودوا إلى البحر الذي لا يذكر الموتى ولا الأحياء  
عودوا مرة أخرى  
فلم نذهب وراء خطاكم عبثاً  
مراكبنا هنا احترقت

لاحظ أن التكرار في المقطع السابق، وقد ورد بأشكال كثيرة، أفاد معنى  
لتحقيق الهدف، كما أفاد معنى التحدي للعدو.

وللشاعر قصيدة أخرى تحت عنوان: «مديح الظل العالي» يصور فيها مأساة لبنان  
منذ احتلال الجيش الإسرائيلي لجنوبه وحتى خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت إلى  
مناحي الدول العربية الصديقة والشقيقة.

ومحمود درويش يخبرنا في هذه القصيدة الطويلة بكل مجريات الحرب والحصار،  
والدم، والقتل. ونجده يصف أيام حصار بيروت وكل ما حدث أثناء اليوم، صباحاً،  
ومساءً، كان يتابع ما يجري يومياً في المدينة الصامدة بأملها ويأبطلها.. صامدة  
بحجارتها التي أصبحت رصاصاً في وجوه قوات الاحتلال التي كانت تقصف بيروت  
الغربية من الشطر الشرقي للمدينة نفسها.

وصف درويش الأقدام الهمجية التي داست على كرامة الأمة العربية ولم تجد من  
يقف في طريقها إلا نفر قليل من الرجال الأبطال الذين تعاونوا مع أبطال المقاومة في

بيروت، ويقول الشاعر، واصفاً الحالة التي مرَّ بها سكان بيروت أثناء الحصار من قتل  
وتجويع وتشريد!

خذ بقاياك، اتخذني ساعداً في حضرة الأطلال، خذ قاموس ناري

وانتصر

في ورده ترمي عليك من الدموع

ومن رغيض يابس، جاف، وعار

وانتصر في آخر التاريخ

لا تاريخ إلا ما يؤرخه رحيلك في انهباري

قلنا لبيروت القصيدة كلها، قلنا لنتصف النهار

بيروت قلعتنا

بيروت دمعتنا

ومفتاح لهذا البحر، كنا نقطة التكوين<sup>(١)</sup>

الشاعر يورد حقيقة أن الفلسطيني قاتل وحده في بيروت وغيرها، ويقول مخاطباً  
الفلسطيني: لقد قدمت جسمك مقابل أن تحصل على حبة زيتون.. صمودك من أجل  
عودتك يكلفك الكثير وربما حياتك، قاومت بكل شجاعة في منفى جديد خارج أرضك  
وزيتونك، فأنت السيد وأنت ابن الهواء الصلب.. أنت الإعصار.. لا أحد يستطيع أن  
يقيدنا أو يعطلنا، وإذا استطاع قتلنا فسيأتي من يحمل الأمانة ويتابع المسيرة حتى  
النصر المؤزر والعودة للقدس الحبيبة:

كم كنت وحدك، يا ابن أمي،

يا ابن أكثر من أب،

كم كنت وحدك

القمح مرَّ في حقول الآخرين

والماء مالح

(١) محمود درويش: مديح الظل العالي، دار العودة - بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص ٥ - ٨ .

والفيم فولاذ، وهذا النجم جارح  
وعليك أن تحيا، وأن نحيًا  
وأن تعطي مقابل حبة الزيتون جلدك  
كم كنت وحدك  
لا شيء يكسرنا، فلا تفرق تمامًا  
فيما تبقى من دم فينا ..

لنذهب داخل الروح المحاصر بالتشابه واليتامى  
يابن الهواء الصلب، يابن اللفظة الأولى على الجزر القديمة  
يابن سيدة البحيرات البعيدة، يابن من يحمي القدامى،  
من خليلتهم، ويطبع فوق وجه الصخر برقًا أو حماما

الشاعر يقدم لنا صورة مأساوية للإنسان المحاصر داخل أسوار بيروت، وداخل  
مخيمات لبنان، صورة لجسم هذا الإنسان الذي أصبح يُقَطَّع، ويرمى في كل مكان.. هذا  
الجسم الأدمي أين قيمته في الحياة؟ أليس للإنسان قيمة؟ نعم إن هذا الإنسان أصبح  
صيداً لليهود وللعملاء في كل جهة، ولكن ألم يعلموا أن هذا اللحم الأدمي.. مر المذاق  
صعب المنال.. هذا لحم الإنسان الصامد الشريف، ومهما حدث فإن العذاب والضياع  
والغربة عنوان كل فلسطيني يعيش على هذه الأرض. ولا شك أن الشاعر في هذه القصيدة  
الطويلة قدّم لنا وصفاً حياً عن حرب لبنان.. بتفاصيلها الدقيقة حصار بيروت.. خروج  
المقاتلين الفلسطينيين إلى مناهي الصحاري العريية، وأزقة العواصم العريية المهانة)

ومحمود درويش يستخدم الرمز في شعره كما لاحظنا في المقاطع السابقة، والرمز  
الشعري يستخدمه الشعراء في العصر الحديث، "فالرمز الذي يؤدي وظيفة نفطن إليها،  
ونعترف بها، بشخص خبرة عامة يتردد صداها من ضمير إلى ضمير أثناء أزمان  
متطاولة، ولن يقوى على ذلك ما لم يرتفع على ما هو شخصي أو موضوعي، ويصبح  
عاملاً من عوامل الاتصال المنتجة"<sup>(١)</sup>، أو هو ما عبّر عنه إزرا بلوند في قوله: «الكلمة

---

(١) الدكتور مصطفى ناصف الصورة الأدبية، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٨م، ط١، ص ١٨٢، وانظر  
تفاصيل ذلك في الدراسة الفنية لهذا الشعر بالباب الرابع من هذه الدراسة.

مشحونة بالمعنى<sup>(١)</sup>، فللكلمة طاقة تعبيرية قوية.

يقول درويش:

لحمي على الحيطان لحمك يابن أمي

جسد لأضراب الظلال

وعليك أن تمشي بلا طرقي

وراء، أو أماماً، أو جنوباً أو شمال

وتحرك الخطوات بالميزان

حين يشاء من وهبوك قيدك

ليزينوك، وياخذوك إلى المعارض كي يرى الزوار مجدك

كم كنت وحدك

لقد ردد الشاعر عبارة "كنت وحدك" في هذه القصيدة كثيراً، خاصة عندما تحدث عن حصار بيروت والمقاومة الفلسطينية التي كانت تدافع وحدها عن المدينة، وأيضاً نجد الشاعر يحذر الفلسطيني ممن حوله، لأنهم خذلوه وكسروه في المعركة، وتتفجر عواطف الشاعر في هذه المقاطع وكأنها قنبلة موقوتة لزمن محدد، في وجه من أنكر الوجود الفلسطيني، وساعد على ترحيل المقاتلين الفلسطينيين منها، يقول: درويش في مرارة:

كسروك كم كسروك كي يقضوا على سافيك عرشا

وتقاسموك وأنكروك وخبأوك وأنشأوا لبيدك جيشا

حطوك في حجر.. وقالوا لا تسلم

ورموك في بئر.. وقالوا لا تسلم

وأطلت حريك، يابن أمي،

---

(١) أرشيبالد مكليش، الشعر والتجربة، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسي، الهيئة العامة لقصور

الثقافة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص ١٨.

الف علم، ألف علم، ألف علم، في النهار  
فأنكروك لأنهم لا يعرفون سوى الخطابة والفرار

هم يسرقون الآن جلدك

فاحذر ملامحهم.. وعمدك

كم كت وحدثك، يابن أمي

يابن أكثر من أبي،

كم كت وحدثك

يلاحظ تيرات الحزن والأسى في المقطع السابق، ثم يلاحظ استعمال الضمير/  
الفائب في كثير من الكلمات: «كسروك، تقاسموك، أنكروك،....؛ لأنهم، هم يسرقون»  
استعمال الشاعر هذا الضمير بكثرة على هذا النحو يوحي بأنه لا يريد مجرد ذكر  
اسمهم، فمجرد ذكر اسمهم يشعر بالفصمة، لذا لجأ إلى الضمير الفائب، في مقابل  
استعمال ضمير المخاطب هؤلاء الأبطال الذين يستعذب الشاعر ذكرهم.

في المقاطع السابقة يذكر الشاعر بأن هناك من طلب من المقاومة الفلسطينية القتال  
وعدم الاستسلام حتى الموت دون أن يقدم أي مساعدة، ونلاحظ أن كلمة «كم» تتكرر  
كثيراً لأنها تدلُّ على الكثير والأخبار، ويخبرنا الشاعر بأن هؤلاء لا يجيدون إلا إلقاء  
الخطب الرنانة، والفرار من المعارك والاختباء في دهاليز ومواخير الصمت والاستكانة!!  
ويلاحظ - أيضاً - قوله بصيغة الجمع «حطوك/ قالوا/ رموك/ أنكروك/ لأنهم/  
يعرفون/ هم/.....» ودلالة الخطاب الجمعي تشير إلى أمة بكاملها لم تجرؤ حتى على  
الاستكارة!!

ثم يتابع درويش قوله:

والآن والأشياء سيدة، وهذا الصمت عال كالذبابه

هل ندرك المجهول فينا؟ هل تقني مثلما كنا تقني؟

سقطت قلاع قبل هذا اليوم، لكن الهواء حامض

وحدي أذاع عن جدار ليس لي

وحدني على سبط المتدين واقتض..

أيوب ملت، وماتت العنقاء، وانصرف الصنحابه

وحدني اراد نفسي التكلني فتأبى أن تساعديني على نفسي

ووحدي، كنت وحدي

عندما قاومت وحدي

وحدة الروح الأخير..

لاحظ استلهام الشخصية التراثية من خلال «أيوب» مضرب الأمثال بالصبر والمقاومة، وعدم الاستكانة، والتشبيث بالأمل، ولاحظ استلهام الأسطورة من خلال «العنقاء»، ذلك الطائر الخرافي الذي يولد من رماد احتراقه، كلما احترق، وهو يوحي بتوالد الأمل في الحياة، ولاحظ - أيضاً - النبرة الصوتية المألوية المترددة خلال تكرار كلمة «وحدني» الدالة على التحدي والصمود.

ثم إن درويش يستلهم النص الديني الإسلامي، مؤازراً الفدائي بشحنة معنوية دفاقة تجبره على الصمود والمقاومة، فيقول:

الله أكبر

هذه آياتنا، فاقرأ

باسم الفدائي والذي خلقنا

من حزمه أفتنا

باسم الفدائي الذي يرحل

من وقتكم.. لندائه الأول

الأول الأول

سندمر الهيكل

باسم الفدائي الذي يبدأ

أقرأ

بيروت - صورتنا

بيروت - صورتنا

بيروت - لا<sup>(١)</sup>

والشاعر يتحدث لابنته/ الأمل القادم الصامد تحت التهديد والاعتقال، فيقول:

نامي قليلاً، يا ابنتي نامي قليلاً

الطائرات تمضني.. وتمض ما في القلب من غسل

فنامي في طريق النحل نامي

قبل أن اصحو قتيلاً...

نامي قليلاً

الطائرات تطير، والأشجار تهوي

والمباني تخبر السكان، فاخترتني بأغيتي الأخيرة،

أو بطلقتي الأخيرة، يا ابنتي

ويتحدث الشاعر عن مأساة الفلسطينيين في لبنان مبيناً عمقها من خلال أمثلة أوردها، فالأشلاء الأدمية في كل زاوية وشارع، وتدمير المنازل، والقتل والقصف، وتجسدت المأساة في وقوف العرب مكتوفي الأيدي لا يحركون ساكناً، وهو هنا يمحط اللثام عن صمتهم المريب، متحدثاً لأخيه الفدائي الرابض بجواره في الخندق:

أشلاؤنا أسماؤنا.. لا.. لا مفر

سقط القناع عن القناع عن القناع

سقط القناع

لا أخوة لك يا أخي، لا أصدقاء

يا صديقي، لا قلاع

---

(١) اقرأ تحليل هذا النص في مجلة إبداع العدد ٧، ٨، القاهرة ٢٠٠٨م، هـ محمد سالمان «استلهام

النص الديلي عند محمود درويش»، وانظر أيضاً الدراسة الفنية بالباب الثاني من هذا الكتاب.

لا الماء عندك، لا الدواء، ولا السماء، ولا الدماء، ولا الشراع

ولا الأمام، ولا الورااء

حاصر حصارك.. لا مفر

سقطت ذراعك فالتقطها

واضرب عدوك.. لا مفر

وسقطتُ قربك، فالتقطني

واضرب عدوك بي.. فانت الآن حر

حر.. حر

قتلاك، أو جرحاك فيك ذخيرة

فاضرب بها، اضرب عدوك.. لا مفر

لاحظ كثرة التكرار بالمقطع، فالشاعر يلج على فكرته ويريد ترسيخها في ذهن  
القارئ، فكان تكرر "لا"، "سقط القناع"، "اضرب"، "حر"، وعلى الرغم من غنائية المقطع  
ومباشرة فإن به توهج شعري مؤثر نتج عن التكرار، فضلاً عن العاطفة الصادقة.

ويعود الشاعر إلى تفصيل مأساة بيروت، بالحديث عنها أيام الحرب في الفجر،  
ووقت الظهيرة، وحين يهدمها الليل المظلم المضيء بقنابل الجيش الإسرائيلي،  
ويستخدم الشاعر الرمز بشكل كبير في قصيدته؛ لأن الشاعر أحس بالمرارة، ومرراً  
بالتجربة، ويجب على الشاعر أن يكون في مقدوره أن يحس بالتيار الرثيمي الذي  
يسري عبر الأجيال والعصور السابقة، يحتاج الشاعر المعاصر إلى أن يدرك أن العقل  
العربي، وهو أهم بكثير من عقله، يتغير في تطور لا يقلل فيه القديم من أجل الجديد،  
وليس الحاضر المتيقظ إلا وعياً للماضي في شكل جديد<sup>(١)</sup>.

يقول درويش في "بيروت فجراً" يبين فيها ما حدث لبيروت أثناء الحصار من قديم  
وهتك للأعراض وقتل للأطفال، مبيناً بطريقة «السرد» حال المدينة، مصوراً تفاصيل  
الحياة اليومية.

(١) د. مصطفى ناصف: مصدر سابق، ص ٣٦٢.

بيروت/ فجر:

يطلق الهمجر الرصاص على النوافذ، يفتح العصفور أغنية  
مبكرة. يطير جازنا رف الحمام إلى الدخان يموت من لا  
يمستطيع الركض في الطرقات.. قلبي قطعة من برتقال  
يابس.. أهدي إلي جاري الجريدة كي يفتش عن أقاربه  
اعزبه غداً، أمشي لأبحث عن كنز الماء في قبو البناية  
أشتهي جسداً يضيء البار والغابات.. يا "جيم" اقتليني  
واقتليني واقتليني.

يدخل الطيران أفكارى ويقصفها ..

فيقتل تسع عشرة طفلة

يتوقف العصفور عن إنشاده

عادية ساعاتنا .. عادية،

لولا سهيل الجنس في ساقيك يا "جيم" الجنون

والموت يأتينا بكل سلاحه الجوي والبري والبحري

ألف قذيفة أخرى ولا يتقدم الأعداء شبراً واحداً

يا فجر بيروت الطويلا

عجل قليلا

عجل لأعرف جيداً:

إن كنت حياً أم قتيلاً<sup>(١)</sup>

كان هذا فجر بيروت، ثم يأتي وقت الظهيرة فيها فيحدثنا الشاعر عما جرى للمدينة  
ساعة الظهيرة موضعاً موقف العرب تجاهها، وموقف أمريكا الحاقداً على الأمة العربية  
ممثلة بقنابلها الحارقة وتخطيطها الحاقداً ..

(١) محمود درويش/ مديح الظل العالي، مصدر سابق، ص ٥٤ وما بعدها.

بيروت/ ظهراً.

يستمر الفجر منذ الفجر  
تتكسر السماء على رغيّف الخبز  
ينكسر الهواء على رؤوس الناس من عبء الدخان، ولا جديد  
لدى العروبة

بعد شهر يلتقي كل الملوك، بكل أنواع الملوك من العقيد  
إلى الشهيد، ليبحثوا خطر اليهود على وجود الله<sup>(١)</sup>.  
أما الآن فالأحوال هادئة تماماً مثلما كانت،  
وأن الموت يأتينا بكل سلاحه الجوي والبري والبحري.

مليون انضجار في المدينة

.....

عرايا نحن، لا أفق ينفطينا، ولا قبر يوارينا

ويا.. يا يوم بيروت المكسّر في الظهيرة

عجّل قليلاً

عجّل لنعرف أين صرختنا الأخيره

أما بيروت وقت العصر فيحدثنا محمود درويش عن المأساة في هذه اللحظات قائلاً:

بيروت/ عصراً:

تكثر الحشرات

تزداد الرطوبة

ترتخي العضلات

---

(١) على الرغم من الدلالة الواضحة على خطر اليهود، فما كان يليق بالشاعر أن يكتب هذا السطر الشعري على هذا النحو. وقد ورد أيضاً في القصيدة قوله: «من أدمي جبين الله»!!!

نشمر أن للأرض احتقانا في مفاصلنا  
فنصرخ: ايها البطل انكسر فينا  
ويصور الشاعر حالة بيروت في المساء طوال أيام الحصار، فيقول:  
مساء / فوق بيروت:

الرخام

ينز دماً، ويذبحني الحمامُ  
إلى من أرفع الكلمات سقفاً  
وهذي الأرض يحملها الغمام؟  
ويرحل، حين يرحل، نحو تيهي  
أحرق في المسدس، وهو ملقى  
على طرف السرير، وأشتهيه.

وينقذني، وينقذني الكلام

ظلام كل ما حولي.. ظلام

لاحظ السطر الأخير تجد أن الظلام يمثل طرفي الخيط، فهو البدء وإليه المنتهى،  
فالظلام ممتد طوال الأربع والعشرين ساعة!

وبيروت ليلاً وفجراً وظهراً وعصراً يقدمها لنا الشاعر في قصيدته "مديح الظل  
العالي" وكأنها مسرحية تمثل على خشبة المسرح، والشخص يقومون بدورهم على أكمل  
وجه، الظلام في كل مكان.. القتل وبريق الدم يضيء المسرح.. النجدة.. الاستغاثة..  
جمع غفير من المتضرجين الحضور.. يشربون ويأكلون.. يهرجون يقهقهون<sup>(١)</sup>.

ومحمود درويش يذكر بالمذابح السابقة.. ويبين بأن هذا الحبل الدموي وهذا الجرح  
النازف هو تنمة لما حدث في كفر قاسم، ودير ياسين، وبحر البقر، وصبرا، وشاتيلا،  
وقانا، و.... إلخ، فيقول:

(١) د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، مصدر سابق، ص ٢٩٢ .

سرقت دموعنا يا نذب  
تقتلني وتدخل جنتي وتبيمها  
اخرج قليلاً من دمي حتى يراك الليل أكثر حلقة  
واخرج لكي نمشي لمائدة التفاوض، واضحين،  
كما الحقيقة  
قاتلاً يدلي بسكين  
وقتلي  
يدلون بالأسماء  
«صبرا»  
«كفر قاسم»  
«دير ياسين»  
«شاتيلاء»

ويقول درويش أيضاً موضعاً قسوة وصلافة جنود الاحتلال، ومدى حقدهم حتى  
على الأموات في قبورهم.. يريدون أن يقتلعوا الجذور من الأرض، ولكن جذورنا قوية  
راسخة في باطن الأرض الطيبة التي تثبت الشهداء على الدوام.

بيروت/ ليلاً،

يقصفون مقابر الشهداء، يدثرون بالقولاذ، يضجمون مع فتياتهم، يتزوجون، يطلقون،  
يسافرون، ويولدون،

ويعملون، ويقطعون العمر في دباية..

أهلاً وسهلاً.

يخرج الشهداء من أشجارهم، يتقدمون صفارهم، يتجولون على السواحل

يرصدون الحلم والرؤيا، ينطون السماء بفائض الألوان،

يفترشون موقمهم،

يسمون الجزيرة، يفسلون الماء، ثم يطرزون حصارنا

قططاً ونخلاً

درويش يذكرنا بالوحدة في كل مقطع من مقاطع قصيدته.. ضابئاء بيروت قاتلوا  
وحدهم.. نعم، ولا شك أن الشاعر يبكي من خلال أبياته بكاء مرأاً.. وكيف لا يبكي وهو  
يرى الأهل يُقتلون، والأطفال يُذبجون، والنساء تُهتك أعراضهن.. الكل يرى ويسمع ولا  
بيدي حراكاً بل بيتسم ابتسامة صفراء دلالة الذل.. ويتابع الشاعر قوله:

بيروت/ فجرا

بيروت/ ظهرا

بيروت/ ليلا

يخرج الفاشي من جسد الضحية

يرتدي فصلاً من التلمود: اقتل - كي تكون

عشرين قرناً كان ينتظر الجنون

عشرين قرناً كان سفاخاً معمم

عشرين قرناً كان يبكي.. كان يبكي

كان يخفي سيفه في دمهته

أو كان يحشو بالدموع البندقية

عشرين قرناً كان ينتظر الفلسطيني في طرف المخيم

عشرين قرناً كان يعلم

أن البكاء سلاحه.

هكذا عاد الشاعر إلى تصوص التلمود التي تحث على القتل، كما عاد إلى التاريخ  
من خلال عشرين قرناً من الزمان التي توضح أفعالهم وجرائمهم، هذا وقد أبداع  
الشاعر في أبياته الشعرية حول صبرا، التي شبهها بالفتاة، إذ نجد أنه قدم لنا شرحاً  
مفصلاً عن صبرا وعن رحيل المقاتلين.. ووصف منظر الوداع حين ودعتهم صبرا.. وهي  
تسألهم.. هل ترجعون؟.. بكت صبرا.. ذرفت الدم والدموع.. بقيت صبرا واقفة

صامدة.. تنظر إلى الأبطال الراحلين، اسودت الدنيا في عينيها.. وسافرت معهم بكل جوارحها.. ولكنها استيقظت على صوت يضررها يقطع ثدييها.. يأكل لحمها.. ينهش بمخالبه جسدتها الطاهر.. يرمي عظامها لجوارح الطير، وكل ذي مخلب، ولكن صبيرا ستبقى هوية لكل فلسطيني، يقول:

صبيرا - فتاة نائمة

رحل الرجال إلى الرحيل

والحرب نامت ليلتين صغيرتين

وقدمت بيروت طاعتها، وصارت عاصمة

ليل طويل

يرصد الأحلام في صبيرا،

وصبيرا - نائمة

صبيرا - بقايا الكف في جسد قتيل

ودّعت فرسانها وزمانها

واستسلمت للنوم من تعب، ومن عرب رموها خلفهم

صبيرا - وما ينس الجنود الراحلون من الجليل

لا تشتري وتبيع إلا صمتها

من أجل ورد للضفيرة

صبيرا - تفني نصفها المفقود بين البحر والحرب الأخيرة

لِمَ ترحلون؟!

وتتركون نساءكم في بطن ليل من جديد؟!

لِمَ ترحلون؟!

وتعلقون مساءكم

فوق المخيم والنشيد.

صبرا - تقطي صدرها العاري بأغنية الوداع

وتمدُّ كفيها وتخطئ

حين لا تجد الذراع

كم مرة ستسافرون؟!

ولأي حلم

وإذا رجتم ذات يوم

فلأي منفى ترجعون،

لأي منفى ترجعون؟

صبرا - تمزق صدرها المكشوف

كم مرة

تفتح الزمرة

كم مرة

ستسافر الثورة؟

صبرا - تخاف الليل تسنده لركبتها

تقطيه بكحل عيونها، تبكي لتلهيه:

رحلوا وما قالوا

شيئاً عن العودة

ذبلوا وما مالوا

عن جمرة الورد!

عادوا وما عادوا

لبداية الرحلة

والعمر أولاد

هريوا من القُبلَة

لا، ليس لي منفي

لأقول لي وطن

الله، يا زمن!

صبرا تام، وخنجر الفاشي يصحو

صبرا تنادي - من تنادي

كل هذا الليل لي، والليل ملح

يقطع الفاشي ثديها - يقل الليل

يرقص حول خنجره، ويلعقه، يفني لانتصار الأرز موالا،

ويمحو

في هدوء.. في هدوء لحمها عن عظمها

ويمدد الأعضاء فوق الطاولة

ويواصل الفاشي رقصته ويضحك للميون المائلة

ويجن من فرح، وصبرا لم تعد جسدا.

ويأتي الشاعر إلى نهاية قصيدته الطويلة، والتي تعدُّ من درر الشعر الحديث، ونجده يودع بيروت وأهل لبنان، ويذكر مواقفهم الطيبة مع من رحلوا عن بيروت، هذا النصّ المليء بالقضايا السياسية، واللون بالصور البلاغية والتشابه الرائعة، فضلاً عن الرموز الموحية.

يا أهل لبنان.. الوداعا

شكراً لكل شجيرة حملت دمي

لتضيء للفقراء عيد الخبز

أو لتضيء للمحتل وجهي، كي يرى وجهي

نلاحظ في هذا المقطع النغم الملتاعة على فراق بيروت، ونشم فيه رائحة التحدي والصمود.

وهكذا قدم لنا الشاعر محمود درويش وثيقة تاريخية سياسية أدبية في قصيدة "مديح الظل المائي" لتمطينا صورة واضحة وحقيقية عن مجريات الحرب عام ١٩٨٢ في بيروت، وحصارها المرير حيث تلقي هذه المطولة الشمرية الضوء على الأحداث السياسية، والأوضاع المتردية في الوطن العربي وجعلنا نشاهد ملحمة البطولة والصمود في بيروت وكأننا نحيش مأساتها، وبالفعل كانت أبيات القصيدة مؤثرة موجعة بصورها وألفاظها؛ لأنها تعالج وضعاً حزيناً لشعب بطل لا يهزم ويلفت القصيدة شأواً عالياً من الجودة؛ لأنها تصدر عن إنسان عاش الحصار، وتكبد معاناته وآلامه، وكان أحد الذين عاشوا في بيروت طيلة أيام الحصار وأحد المفادين منها في رحلة العذاب التي لا تنتهي، وقد استخدم الشاعر الرمز والإيحاء في كثير من المواضع، ونبه مباشرة على الأخطار المحدقة بالوطن العربي ودعا إلى الصحو من الكابوس، وإلا سيسحقنا من لا يرحم!

كتب محمود درويش قصيدة رائمة تدور حول الخروج الفلسطيني الكبير من بيروت البطولة إلى أزمنة التشتت في العالم، هذا الجرح الكبير الذي حل بجسد الثورة الفلسطينية، يصفه في قصيدته "بقايا كلام على مقعدين" ولا شك في أن هذه السطور تحمل عناوين مختلفة تمثل الوضع المأساوي الذي يعيشه الفلسطينيون في بيروت وفي كل مكان، وصف دقيق للمأساة.. نجيب وبكاء.. صراخ وعويل.. صواريخ وقنابل.. حصار وإراقة دماء.. خروج وفرقة، واممتصماه، ولكن أين هو الآن منا، وأين نحن الآن منه يقول:

سنخرج

قلنا: سنخرج

قلنا لكم: سوف نخرج منا قليلا، سنخرج منا

إلى هامش أبيض نتأمل معنى الدخول ومعنى الخروج

سنخرج للتو.. أب أبونا الذي كان فينا إلى أمه الكلمة

وقلنا:

سنخرج فلتفتحوا خطوة لدم فاض عنا  
وغطى مدافعكم، أوقفوا الطائرات المغيرة خمس دقائق أخرى  
وكفوا عن القصف، برا وبعرا، ثلاث دقائق أخرى  
لكي يخرج الخارجون، لكي يدخل الداخلون  
سنخرج.. قلنا: سنخرج

فلتركوا حيزاً للوداع الأخير، سلام علينا، سلام علينا  
سنجمع أعضائنا في الحقائق، فلتوقفوا القصف خمس دقائق  
سنخرج

قلنا: سنخرج منا قليلاً.. سنخرج منا  
رمينا على حافة البحر ساحل أجسادنا، وانكسرنا  
كماصفة النخل، حين انتصرنا عليكم، وحين انتصرنا علينا  
وزدنا الشوارع ظللاً يسمي المدينة شكلاً لمعنى  
مهما رحلتنا، ومهما ابتعدنا<sup>(١)</sup>

يلاحظ تداخل الضمائر في المقطع في جمل كثيرة «سوف نخرج منا»، «آب أبونا  
الذي كان فينا»، «سلام علينا»، «سنجمع أعضائنا»، كما يلاحظ الإلحاح والتكرار في  
قوله: «سنخرج»، والتي يشتم منها رائحة التحدي والصمود.

ويؤكد الشاعر بأن المقاومة ستخرج إن كان هذا يريحكم ويريح كل خائن وعميل،  
ولكنه يطلب فرصة صفيحة و لمدة دقائق معدودة، حتى تحزم الأمة، وتهاجر الموجات  
المقاتلة عن بيروت، وتدخل قوات التدخل السريع والمارينز.. يخرج الأمل والأحبة  
والمسلمون، ويدخل مكانهم العملاء والخائون، والمارقون ويضيف قائلاً:

سنخرج، قلنا: سنخرج

---

(١) المجلة - العدد ٢٦٩ / ٢-٩ إبريل "نيسان" ١٩٨٥، رجب ١٤٠٥ هـ - ص ٨٢ هي أغنية محمود  
درويش - ص ٧-٨، دار الكلمة للنشر - بيروت ١٩٨٦ ط ٢.

فلتدخلوا في أريحا الجديدة سبع ليالٍ قصار فقط  
ولن تجدوا طفلة تسرقون ضقيرتها، أو فتى تسرقون فراشاته  
ولن تجدوا حائطاً تكتبون عليه أو امر تتهي عن النزلة وعنا  
ولن تجدوا جثة تحفرون عليها مزامير رحلتكم في الخرافة  
ولن تجدوا شرفة كي تطلوا على الأبيض المتوسط فينا  
ولن تجدوا شارعاً للحراسة  
ولن تجدوا ما يدل عليكم، ولن تجدوا ما يدل علينا،  
خرجنا قبيل الخروج، فلا ترفعوا شارة النصر فوق الجثث  
هنا نحن، نحن هناك، ولسنا هناك، ولسنا هنا.  
هنا نحن تحت العناصر، نحن دم كامن في الهواء الذي تذبجونه  
سنخرج

قلنا: سنخرج فلتمصفوا ظلنا.. ظلنا

خذوه أسيراً إلى أمه الأرض أو علقوه على شجر الكستا  
تكونون أو لا تكون، ادخلوا وهمكم، واحرثوا وهمنا  
سنخرج من كل بيت رأنا نمر دبلبه قربه أو علينا  
سنخرج من كل متر، ومن كل يوم، كما يخر البدو منا  
سنخرج

قلنا سنخرج منا قليلاً إلينا، سنخرج منا

إلى بقعة البحر - أبيض أزرق - كنا هناك، وكنا هنا

يدل علينا الغياب الحديدي - بيروت كانت هناك وكانت هنا

تسيطر على نفسية الشاعر الأحاسيس الحزينة اليائسة من الأمة المريية التي لا  
تحرك ساكناً، فنراه ساخطاً ناقماً على أصحاب الخطب والحفلات والقصائد الجوفاء،  
وهم في داخلهم يتمنون خروج المقاومة سعداء بتشتتهم في الفيافي العربية!!

ولمحمود درويش قصائد تحكي لحظة بلحظة مأساة الفلسطينيين في لبنان نذكر من تلك القصائد، ذلك الوصف التواثق لتل الزعتر من خلال قصيدته أحمد الزعتر، والتي يرسم فيها صورة للمناضل الفلسطيني مهما اشتد الحصار عليه وتكالبت عليه كلاب البحر وأعداء العروبة، فهو يمثل الصمود والثورية النموذجية في المقاومة، وفي هذه القصيدة نرى تجسيداً للنضال الفلسطيني في الأرض المحتلة وفي أي مكان.

وهنا نجد التزاماً من الشاعر تجاه وطنه بكل ما فيه من أبعاد قومية وإنسانية، والشاعر حين يقول أحمد العربي/ أحمد الزعتر فهو وجه من وجوه الأمة العربية وإن شئت قل من وجوه الأمة الإسلامية عامة، وأن الرمز "أحمد" يشير ضمن ما يشير إليه إلى النبي (ﷺ)، فأحمد اسم من أسمائه الشريفة، ومن ثم ترمز القصيدة للأمة الإسلامية، ممثلة في تخير درويش للاسم.

وأحمد الزعتر هو كل عربي شريف مطعون في ظهره من أولئك الذين تهاونوا وتخاذلوا عن نصرته، بل وقفوا مشجعين قتله والتمثيل به، وهو رغم كل ذلك صامد يتحدى؛ لأنه ليس وحيداً.. فهو يحب الأرض والوطن.. ومن يحلم بالوطن لا يكون وحيداً.. يقول محمود درويش في قصيدته أحمد الزعتر والتي يصف فيها مأساة تل الزعتر، المخيم الذي سُوي بالأرض، وقتل جميع من فيه على أيدي كتائب الموارنة كما سبق أن ذكرنا.

ليدين من حجر وزعتر

هذا النشيد.. لأحمد المنسي بين فراشتين

مضت الفيوم وشردتني

ورمت معطفها الجبال وخبأتني

نازلاً من نخلة الجرح القديم إلى تقاصيل البلاد

وكانت السنة انفصال البحر عن مدن الرماد

وكنت وحدي

ثم وحدي<sup>(١)</sup>

(١) محمود درويش - الديوان - المجلد الثاني، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٧م، ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

نلاحظ هنا أن الشاعر يبين لنا أن أحمد الزعتر يتألم لأنه وحيد، ولذا فقط كان التوجع:

أم يا وحدي؟ وأحمد  
كان اغتراب البحر بين رصاصتين  
مخيمًا ينمو، ويتجب زعترًا ومقاتلين  
وساعدًا يشتد في التسيان  
ذاكرة تجيء من القطارات التي تمضي  
وأرصفة بلا مستقبلين وياسمين  
كان اكتشاف الذات في المراتِ  
أو في المشهد البحري  
في ليل الزنازين الشقية  
في العلاقات السريمة  
والمسؤال عن الحقيقة  
في كل شيء كان أحمد يلتقي بنقيضه  
عشرين عامًا كان يسأل  
عشرين عامًا كان يرحل  
عشرين عامًا لم تلده أمه إلا دقائق في أناء الموز  
وانسحبت

لاحظ الاستعارة في جملة «اغتراب البحر» في مطلع المقطع وما تحمله من دلالة أن البحر سيصبح مقترنًا عندما يحمل المهاجرين.

الشاعر مشبع بنبرة غنائية حاملة، يمكن أن نعتبره صوت الشاعر، لكن هديره يعلو أحيانًا، وهو يحدد مدى عنف الضياع الفلسطيني وعمقه، فيجمع التفاصيل الدالة على ذلك (مخيمًا يتمو - مساعدًا يشتد في التسيان - ذاكرة تجيء - قطارات تمضي -

زنازين شقيقة تأسر) هذه التفاصيل بكثافتها وتوترها وتقاطعها وتشابكها تتجه نحو مؤشر ينبئ بحدث محدد، وهو ولادة مسيح الرحلة "أحمد الزعتر" أو نبيها الجديد، ومن خلال اختلاف الأزمنة (الماضي/ الحالي/ المستقبل) يولد "أحمد" مطمووس الملامع: لا أب له، لا وطن له ولا هوية إنه رمز الفلمطيني الذي سيأتي من النسيان، ويطلع من أزمنة القهر بلا وطن يأويه.

ثم ترى الأم التي ولدت ثم انسحبت، ترى هل هي فلسطين أم الأمة المريية؟ ترى عما كان يسأل، وهل وجد جواباً؟

صور الشاعر الإنسان الفلسطيني تائهاً في كل مكان.. وعلى وجهه تساؤلات متى ينتهي هذا الترحال؟ متى المودة إلى الوطن؟ لماذا يقف الناس متفرجين؟ وأين براميل الففط المريي؟

يبعث هذا الشاب عن هوية.. وطن.. أرض.. بيت

يريد هوية فيصاب بالبركان

سأهزت الفيوم وضردتي

ورمت مقاطعها الجبال وخبأتني

أنا أحمد المريي- قال

أنا الرصاصُ البريقالُ الذكرياتُ

وجدتُ نفسي قرب نفسي

فابتعدت عن التدى والمشهد البحري

تل الزعتر الخيمة

وأنا البلاد، وقد أتت

وتممصتني

وأنا الذهاب المستمر إلى البلاد

وجدت نفسي ملء نفسي

راح أحمد يلتقي بضلوعه ويديه

كان الخطوة - النجمة

ومن المحيط إلى الخليج، من الخليج إلى المحيط

كانوا يُعدُّون الرماح

وأحمد العربي يصعد كي يرى حيفا

ويقفز

أحمد الآن الرهينة

تركت شوارعها المدينة

وأنت إليه لتقتله!

ومن الخليج إلى المحيط، من المحيط إلى الخليج

كانوا يُعدُّون الجنازة

وانتخاب المقصلة

الشاعر يوضح الدور المتخاذل للأمة العربية.. إذ وقفت مكتوفة الأيدي وهي ترى

مخيم الزعتري يدمر يقتل فيه من الأبرياء.. من أطفال وشيوخ ونساء!!

يلاحظ في المقطع السابق أن ولادة أحمد الزعتري / الفلسطيني / مجهول الهوية،

بدأت تكتسب لونا من ألوان التعريف لكنه تعريف باهت ضبابي وغير واضح.

• أنا أحمد العربي - قال -

ماضي البطل: هو ماضي الصراعات والعنف داخل أرض البرتقال / فلسطين.

• أنا الرصاص البرتقال الذكريات

حاضره: مؤلم يتلخص في اللجوء المصيري المحتوم

• أنا البلاد وقد أتت وتممصتني

مستقبله: لحظات الطموح والعمل على حسم التناقض، أي اغتراب الأنا عن الوطن/

الأم.

• أنا الذهاب المستمر إلى البلاد

لاحظ جدل العلاقة بين ذاكرة (الماضي)، والرؤيا (المستقبل).  
ثم لاحظ في نهاية المقطع الاتجاه العكسي من كل العرب تجاه البطل / أحمد  
« من الخليج إلى المحيط. من المحيط إلى الخليج  
ماذا يفعل أهل هذه البلاد؟ إنهم «كانوا يعدون الرماح»  
يتابع درويش قصيدته إذ يقول:

أنا أحمد العربي.. فليأت الحصار  
جسدي هو الأسوار.. فليأت الحصار  
وأنا حدود النار.. فليأت الحصار  
وأنا أحاصركم..

أحاصركم

وصدري باب كل الناس.. فليأت الحصار  
لم تأت أغنيتي لترسم أحمد الكحلي في الخندق  
الذكريات وراء ظهري، وهو يوم الشمس والزنبق  
تلمح في الأسطر المسابقة التحدي والإصرار على الاستمرار في النضال والمقاومة،  
آية ذلك تكرار مفردة "الحصار" لأكثر من مرة.. والشاعر يبين لنا أن مخيم تل الزعتر  
هو الأصل والشرف ما دام الجميع غير مباليين، ويكشف عن مخزون التفاصيل، ويوضح  
الخيانات المتتالية:

يا أيها الولد الموزع بين نافذتين

لا تتبادلان رسائلي

قاوم

إن التشابه للرمال.. وأنت للأزرق

وأعد أضلاعي فيهرب من يدي بردي

وتتركتي ضفاف النيل مبتعداً

وأبحث عن حدود أصابمي

فأرى العواصم كلها زَيْدًا ..

كل المدن والعواصم المصرية أصبحت مباء لا فائدة منها، فالنيل/ مصر، يعتمد،  
والعواصم (رمز السلطة) هي الأخرى زَيْدًا لا فائدة منها، ولاحظ صيغة الجمع، والزعر  
يقاثل وحده.. يجلس في الخندق وحيداً.. قطع الأمل من كل أولئك الناس الذين خيَّبوا  
ظنه، يتابع الشاعر قوله:

وأحمد الزعر يفرك الساعات في الخندق

لم تأت أغنيتي لترسم أحمد المحروق بالأزرق

هو أحمد الكوني في هذا الصفيح الضيق

التمزق الحالم

وهو الرصاص البرتقالي.. البنفسجية الرصاصية

وهو اندلاع ظهيرة حاسم

في يوم حرية

يا أيها الولد المكرس للندى

قاوم

يا أيها البلد - المسدس في دمي

قاوم

الآن أكمل هيك أغنيتي

وأذهب في حصارك

والآن أكمل أسئلتي

وأولد من غبارك

فاذهب إلى قلبي تجد شعبي

شعوبًا في انفجارك.

يا أحمد العربي؟

لم يكذب على الحب

لكن كلما جاء المساء

امتصني جرسٌ بعيدٌ

والتجأت إلى نزيبي كي أهدد صورتني

يا أحمد العربي

لم أغسل دمي من خبز أعدائي

ولكن كلما مرت خطاي على طريق

فرت الطرق البعيدة والقريبة

هذه القصيدة ترسم لنا كل ما جرى في تل الزعتر.. وهي تتحدث من داخل المخيم.. الذي أصبح مثلاً يحتذى في كل مكان للجبروت الإنساني والقهر، والذل العربي.. فالزعتر ظامرة يندرج عليها عدة ظواهر.. مذبحه تبعثها عدة مذابح لأحمد الزعتر رمز الصمود النضالي من جانب، ورمز القهر والخيانة من جانب آخر، يقول درويش:

كلما آخيت عاصمة رمتي بالحقيبة

فالتجأت إلى رصيف الحلم والأشعار

كم أمشي إلى حلمي فتسبقتني الخناجر

لاحظ في الأسطر السابقة أن كل الأفعال منبثقة من الذات؛ تهدف لفعل، لكنها - للأسف - موجهة إليها!!! كما تشير هذه الأسطر إلى دواخل الذات، فهي أشبه ما تكون بمحاورة داخلية، فهي تؤكد على عنف الصراع الداخلي، وتكشف (غرية) البطل وانشطاره بين الذات/ الوطن (وأنا البلاد وقد أنت وتقمصتني)، ويبدو أنه لا حسم إلا "بالمقاومة"، وهي في الوقت نفسه تفضح فعل الطغاة وتاريخهم السلطوي القمعي «كم أمشي إلى حلمي فتسبقتني الخناجر - كانوا يعدون الرماح، وانتخاب المقصلة».

ويستأنف درويش ملحمة النضالية، فيقول:

آه من حلمي ومن روما  
جميل أنت في المنفى  
قتيل أنت في روما  
وحيثما من هنا بدأت  
وأحمد سلم الكرم  
وسملة الندى والزعر البليدي والمنزل  
لا تسرقوه من السنونو  
لا تأخذوه من الندى  
كتبت مراثيها العيون  
وتركت قلبي للصدى  
لا تسرقوه من الأيد  
وتبعثروه على الصليب  
فهو الخريطة والجسد  
لا تأخذوه من الحمام  
لا ترسلوه إلى الوظيفة  
لا ترسموا دمه وسام  
فهو الينفسج في قذيقه  
صاعدًا نحو الثام الحلم  
تتخذ التفاصيل الرديئة شكل كُمثرى  
وتنفصل البلاد عن المكاتب  
والخيول عن الحقائق  
للحصى عَرَقٌ

أقبل صمت هذا الملح

أعطي خطبة الليمون لليمون

أوقد شمعتي من جرحي المفتوح للأزهار

والسّمك المجفف..

للحصى عرق ومرأة

ويمضي الشاعر واصفًا بطولة مخيم تل الزعتر من خلال الهموم الذاتية التي تقتحم  
القصيدية في شكل ومضات أو تجليات، وتفجرات تنبع من مخزون الذاكرة، ومن الذاتي  
خلال قوله: (زوجة تقطع البصل)، والجمعي (مطاردات رجال الأمن)، تكتسب الكلمات  
شاعريتها ويصبح الشعر موجودًا في كل شيء:

وللحطاب قلب يمامة

أنساك أحيانًا لينساتي رجال الأمن

يا امرأتي الجميلة تقطعين القلب والبصل

الطري وتذهبين إلى البنفسج

فاذكريني قبل أن أنسى يدي

وصاعدًا نحو التمام الحلم

تتكمش المقاعد تحت أشجاري وظلك..

يختفي المتسلقون على جراحك كالذباب الموسمي

ويختني المتخرجون على جراحك

فاذكريني قبل أن أنسى يدي

وللفراشات اجتهادي

والصخور رسائلي في الأرض

لا طرودة بيتي

ولا مسادة وقتي

وأصعد من جناف الخبز والماء المصادر  
من حصان ضاع في درب المطار  
ومن هواء البحر أصعد  
من شظايا أدمنت جسدي  
وأصعد من عيون القادمين إلى غروب السهل  
أصعد من صناديق الخضار  
وقوة الأشياء أصعد  
أنتمي لسمائي الأولى وللفقراء في كل الأزقة  
ينشدون .. صامدون  
وصامدون .. وصامدون  
والمخيم كله أحمد .. دمشق .. الحجاز .. كل المدن العربية هي أحمد العربي .  
كان المخيم جسم أحمد  
كانت دمشق جنون أحمد  
كان الحجاز ظلال أحمد  
صار الحصار مرور أحمد فوق أفئدة الملايين  
الأسيرة  
صار الحصار هجوم أحمد  
والبحر طلقته الأخيرة!  
ويا خُضْرُ كلِّ الرِّيح  
يا أسبوع سُكْرًا  
يا اسم العيون ويا رخاميّ الصدى  
يا أحمد المولود من حجر وزعتر

سَلْتَقُول: لا

سَنْتَقُول: لا

جلدي عباءة كل فلاح سيأتي من حقول التبغ

كي يلقي العواصم

وتقول: لا

جسدي بيان القادمين من الصناعات الخفيفة

وتردد.. والملاحم

نحو اقتحام المرحلة

وتقول: لا..

ويدي تحياتُ الزهور وقبيله

مرفوعة كالواجب اليومي ضد المرحلة

وتقول: لا..

يا أيها الجسد المضرج بالسفوح

وبالشمس المقبله

وتقول: لا.. يا أيها الجسد الذي يتزوج الأمواج

فوق المقصله..

يتابع درويش قصيدته أحمد الزعتر وهي من روائع قصائده الملحمية؛ لأنه بأسلوبه الشعري وضح لنا صورة أحمد الزعتر من حيث القهر والحصار والخianات العربية.. ثم المقاومة والصمود للقدائين.

ومن الشعراء الذين أثرت فيهم مأساة لبنان حتى الموت، الشاعر الشهيد على فودة هذا الفلمسطيني الذي كتب بالدم عن بيروت وظل يناضل فيها حتى الموت لقد حضرت المأساة أعماقه، منذ رحل من بلده حيفا منتقلاً بين المدن العربية حتى حل على مدينة بيروت ضيفاً، هذا المكافح العنيد لم ينس بلده وعاداته، بل بقي يتذكر كل شيء حتى

الخبز الذي كان يأكله في بلدته، ظل يقاتل بقلمه حتى استشهد في بيروت برصاص  
حاقد مسموم، ومن شعره قصيدة بعنوان "أنت الجرح وأنت السكين، وأنا القاتل  
والمقتول"<sup>(١)</sup>، لاحظ تركيب العنوان "فالجرح هو السكين" . والقاتل هو نفسه المقتول"،  
وهو بهذا يشير إلى المعارك (العربية/ العربية) على الأراضي اللبنانية فيقول:  
متأخراً جنّت..

مساء كان الوقت، وموعدنا كان قبيل طلوع الفجر  
وداعاً، لمن سوف يأتون من وقتاً صامتتين،  
ومن دمنا واقضين، لندخل<sup>(١)</sup>  
أما قصيدته آن للشاعر أن يقتل نفسه فيقول فيها:  
آن للشاعر أن يقتل نفسه  
لا لشيء، بل لكي يقتل نفسه  
قال: لن أسمح للنحلة أن تمصني  
قال: لن أسمح للمرأة أن تتركني حياً على ركبتيها  
من ثلاثين سنة  
يكتب الشعر وينماني..  
وقمنا عن جميع الأحصنة  
ووجدنا الملح في حبة قمح، وهو ينماني، خسرنا الأمكنة  
وهو ينماني. أنا الآخر فيه  
آن للشاعر أن يخرج للأبد  
ليس قلبي من ورق  
آن لي أن أفترق  
عن مراياي، وعن شعب الورق

---

(١) الخليج الثقافي - ملحق العدد ٢٢٢ - الملحق الثقافي - ٢٢ أغسطس ١٩٨٢م.

آن للنحلة أن تخرج من وردتها نحو الشفق

آن للوردة أن تخرج من شوكتها كي تحترق<sup>(١)</sup>

لاحظ الاستعارة في «شعب الورق» الشاعر يتمنى أن يفترق عن الشعوب العربية التي أصابها الصمت تماماً كأوراق القمم العربية، وقد طال صمتها!!

ويتابع علي فودة أبياته مصوراً حالة التشرد والمأساة التي يمر بها الإنسان الفلسطيني وهنا يُرمز له بالعصفور الذي يهرب من البرد إلى مكان دافئ، ولكنه لا يجد إلا الثلج، فالقتل يطارده ولا مفر له سوى الصمود أو العودة إلى الأمطار والحرب.

وعلي فودة يخاطب بيروت وكل المدن المصابة، وكأنها امرأة، وحواره مع سيدة الماء حوار جميل، بل نجد أن الصور البلاغية «الاستعارات والكتابات والتشبيه» تملأ أبياته الشعرية، فهو يكتب من أعماق قلبه بصدق لا تكلف عنده ولا تصنع فهو ابن المأساة، الصعلوك والفجري الذي آل على نفسه أن يعيش آمناً بعيداً عن الخطر، وفضل الموت الشريف على العيش الذليل<sup>(٢)</sup>.

لم يجد العشّ الدافئ

فاجأه الثلج

فعاد إلى الأمطار

ماذا يملك في تلك اللحظة عصفور الدهشة

غير العودة..

أين هي النار؟

فوق النخلة

أم بين أكاليل الفار؟

لكي يوجعني أيتها الوردة ما يوجعك، فلا تبكي..

لست بمقاتلك الأول

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، ص ٣٠٥ .

لست بقاتلتي الأولى

يؤكد الشاعر بأن الألم واحد.. بيروت.. أيتها الوردية، فأنا لست القاتل الأول، وأنت  
لست القاتلة الأولى.. أي أن هناك الكثير من جرب مبضعه في هذا الشعب المشرذ فلا  
تحزني أيتها الجميلة، فالقاتل في كل مرة هو المجهول، مع أن الكل يعلمه ويعرفه!!

أنت الجرح، وأنت السكين

وأنا القاتل، والمقتول

من قاتلنا أيتها الوردية؟

قاتلنا كان المجهول!

ربما أراد الشاعر أن يخفي حقيقة ما حدث، وأن القتلة هم أبناء يعرب فكني عن  
ذلك بقوله: «قاتلنا كان المجهول»، والملاحظ سيطرة الحروف اللينة على المقطع، والتي  
تكررت نحو سبع مرات عبر أربعة أسطر شعرية إنما توجي بالصرخة الأليمة من جراء  
ما حدث له ولإخوانه.

وإذا كان هؤلاء الشعراء محمود درويش، والشهيد علي فودة، وغيرهم تناولوا المسألة  
من داخلها وعابنوها وعایشوها لحظة بلحظة وصوّروا تفاصيلها ودقائقها، فيكون  
السؤال ما موقف الشعراء الفلسطينيين في داخل الأرض المحتلة؟ وهو ما ستجيب عنه  
الصفحات التالية.





الموسم الثاني

---

تأثير الأمية على الشعراء الفلسطينيين في الأوسى المحتلة



كان لمأساة لبنان أكبر الأثر في فلسطين المحتلة، فأهل فلسطين شعروا بها لأنهم مروا بنفس التجربة، جرح بيروت هو جرح القدس، وما عانتها صيدا عانت منه الجليل والخليل، شعراء فلسطين حزنوا لما أصاب لبنان من دمار وقتل وتشريد، وعبروا عن قلقهم وحزنيهم، لأن لبنان عزيز على قلوبهم كما هي فلسطين في القلب.

ومن الشعراء الذين كتبوا عن مأساة لبنان سميح القاسم، وعلى الخليلي، ومحمد شديد، وهؤلاء جميعاً يعيشون داخل الوطن المحتل، يقاومون الاحتلال بشمرهم الوطني الصادق، الذي يدعو إلى طرد المحتل، ويستنهض الهمم والعزائم للثورة والجهاد.. أما سميح القاسم شاعر فلسطين، فقد مزته المأساة وكتب عنها، كما كتب عن حبيبته فلسطين التي مازالت الهاجس عنده وعند كل فلسطيني يؤمن بمدالة قضيته، تفتقت شاعرية سميح القاسم وعاطفته أثناء اجتياح لبنان عام ١٩٨٢م؛ لأن الجرح يقض المضجع والمصيبة واحدة، وسميح القاسم يعيشها في فلسطين، وهو يقول في قصيدته القصيدة المفخخة، مخاطباً أهل فلسطين منبها لخطر اليهود مذكراً بالأجداد والآباء والجدور، وخطابه لا يقتصر على أهل فلسطين بل يشمل الأمة العربية جمعاء لكثرة الاجتياحات التي تقوم بها الصهيونية ضدهم، نجد التواصل في قصائده ولا تستغرب ذلك لأن الشاعر يقول ويكتب بصدق إحساس وعاطفة جياشة، نجد النقمة على اليهود من خلال مقاطع قصيدته، وكم من صورة يقدمها لنا من خلال قصائده، فهو يحذر وينبه في آن واحد، ويشد على أيادي المقاتلين الذين يحيون الأرض، ويقاثلون من أجل العرض، ويؤمنون بمدالة السماء في عودة الحق لأمله، ودرح الظلم، وتنفس الصبح مهما اشتد ظلام الليل يقول سميح:

لا بد أن تمضي

ظلامك حالك؟

لا بأس

مد يدك في حذر

وحاول أن تصيخ القلب

حلق بالأصابع

ولتكن أذناك

في هذا الظلام عصاك

لا!

ما أنت بالأعمى

ستتهمني

ظلامك دامس

وعليك أن تمضي

لديك رسالة

والنور في علب المرائس أنت تهمني

تقدم!

بترتك طائرة بريش جناحها

أبصرت لحمك طائرا

ترتج في منقاره الدموي سنبلتان

واحدة لطفل جائع

سقطت على أبويه جدران المخيم

ولشعر من أحببت سنبل<sup>(١)</sup>

يتابع سميع القاسم قصيدته موضعا لؤم وشراسة وحقد الأعداء، ويضرب أمثلة على قسوتهم، مثل قتل آباء الأطفال وأمهاتهم، وتفجير البنايات السكنية، والسجون المليئة بالشباب، والسيارات الملقومة، كل ذلك بأسلوب ثوري لا يعرف السكوت، بل نجد

---

(١) سميع القاسم- شخص غير مرغوب فيه، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية،

ط١، ١٩٨٦، ص٩، وهي في الأعمال الكاملة للشاعر: ٣ / ١٣٧.

نارًا توجج صدر القاسم، نارًا تحرق الأعداء، وتصب الحمم على رؤوسهم، نجد معان  
دفاقة منتزعة من الواقع الأليم الذي يمشه الشاعر في فلسطين المحتلة.. احتلال..  
سجن.. تعذيب.. طرد.. هدم بيوت، وقلع أشجار.. قتل واغتيال، اجتياحات...!!

سممتك صارخًا من قاع موتك:

اقبلوا

أو فارحلوا...

يا أيها الموتى بلا موتٍ

تعبت من الحياة بلا حياة

وتعبت من صمتي

ومن صوتي

تعبت من الرواية والرواة

ومن الجناية والجناة

ومن المحاكم والقضاة

وسئمت تكليس القبور

وسئمت تبذير الجياع

على الأضاحي والندور

بعد هذا الفاصل من التعب، من الأشياء وعكسها، نراه يرسم لنا صورة لشهادة بطل  
فخخ نفسه ليلقى الشهادة راضيًا عن نفسه، فيقول:

دوّنت عنواني

ورقم الهاتف السري

في سيارة ملفومة

ودفعتها في البر

لم أحدس

بأن غزالة زرقاء  
سوف تلومني أبداً  
قتلت حبيبها  
ونشرت عنواني  
ورقم الهاتف المصري  
في أشلائه  
وقتل سنبله وورده  
ونكصت مغموماً  
وكننت أنا القتيل  
وقاتلي ذئب خرافي  
كساني الخلق جلده!  
كدست أشلائي  
وأشلاء العدو  
(دماؤنا اختلطت)  
وصورة منزلي المنسوف ظهراً  
والأضابير الصغيرة والكبيره  
والتقارير الوشيره  
والقرارات الخطيره  
والادانات الكثيره  
والنداءات المريرة  
كلها كدستها  
مختومة بالشمع والقصدير

فوق سفينة ملقومة  
ودفعتها في البحر  
لم أحس  
بأن «القرش» سوف يلومني  
لا بأس  
إن يدي على ظهري  
وساقي في ضمي  
لا بأس

صور سميح لحظة من لحظات الألم الكثيرة، ولكن الملفت للنظر، أن الأضاير والتقارير والقرارات والإدانات والنداءات كلها ذهبت أدراج الرياح، لا فائدة منها.

وإذا كان هو/ الفلسطيني القتل، فمن القتلى؟ فكان جوابه «ذئب خرافي كساني الخلق جلده»، فيها إشارة إلى عملاء اليهود من العرب، وينتقل الشاعر فيصور الأطفال حين يفقدون آباءهم أثناء اجتياح إسرائيل لكل بلد عربي، ويصبح هؤلاء الأطفال في الشوارع بلا بيت وأولادهم.. بلا وطن.. ونحن نغتر ولا نبدي مساعدة سوى التدييد والإدانة، ولكن أطفال «الآر، بي، جي» هم الذين يدافعون عن حقهم. وحق آباؤهم وأجدادهم، أطفال في عمر الورود يقدمون أروع ملحمة في البطولة والنداء، ولذا كانوا منه بمثابة القلب النابض، فيقول:

قلبي في الشوارع  
طفل بلا أهل  
دماء كثيرة  
يُنَمَّ وآر بي جي  
وجثة أخته الصغرى  
وآلاف الحواجز  
والجناز

والمواقع

لا بأسى

قلبي في الشوارع

طفل بلا أهل

تطوّحه الزوايح في الزوايح

أبدع سميح القاسم في قصيدة له حول اجتياح إسرائيل للبنان، واحتلال بيروت، وقصيدته بعنوان «جسم بدون رأس.. رأس بلا ضم» إبداعاً لا مثيل له، من وصف للطائرات الإسرائيلية وهي تلقي القذائف والحمم على المخيمات وعلى الأطفال في بيروت وجنوب لبنان، وتمجيداً للبطولة الحقة التي خاضها المقاتلون الفلسطينيون واللبنانيون في الدفاع عن عروبتهم، جاءت القصيدة في مقاطع قصيرة ثورية المعاني، ثورية الاتجاه، يقول القاسم في قصيدته، التي قسمها إلى عدة أقسام، ففي القسم الأول «ظلال طائرة إسرائيلية»، يبين لنا المأساة التي خلفتها طائرات العدو الصهيوني، مأساة ترسخت في قلوب الأطفال الذين لم يصلحوا من التفجير بوساطة الألعاب المفقومة. وهذا أسلوب عدو ليس بجديد. يقول سميح القاسم:

دفتر

ما خريش الأطفال فيه أي حرف

دمية جاحظة العينين

في ومضة خوف

طابة

خبز مبعثر

وفم الطفل المدور

نزعت للتو منه حلمة الأم القتيله

وذراع

رجديله

أحرف عبرية

قنبلة موقوتة

جمر دخان وشظايا

كفل الأسمت

أسماك سناج

مسند الكرسي

أثاث

زوايا<sup>(١)</sup>

هذه صورة للمأساة التي حلت ببلنات، وأهلها في الشطر الغربي من بيروت، والشاعر أورد صوراً رائعة حين قال: «نزعنا لتو منه حزمة الأم القتيلة»، و«ذراع.. وجديلة» وما زال الشاعر في ميدان المعركة، يري الطائرات وهي تقصف المدن والمخيمات، ويصف لنا الدفاع والمقاومة، كل ذلك وهو في فلسطين يقاوم العدو نفسه كل يوم، فهو في معركة دائمة ومستمرة متجددة، ولكن من يعي ومن يقول!!

يقول القاسم في المقطع الثاني من القصيدة، وهو بعنوان: «أدافع»

الطائرات الإسرائيلية

العائدة إلى قواعدها سالمة

تترك وراءها خطأً أبيض طويلاً

(أطول من شراييني.. أطول من أنابيب النفط)

ذلك الخحل المتواعد كحبل المشنقة

هو البيت الأول في النشيد

أما بعد

---

(١) جريدة البيان العدد ٧٨٢، ٩ يوليو ١٩٨٢م، الصفحة الأخيرة ص ١٨، دبي، وهي منقولة عن جريدة الرأي الأردنية بتاريخ ١٩٨٢/٦/٢٤م.

فلا وزن يستقيم مع صرخات أطفالى الأخيرة

هل قلت أطفالى؟

لم أزر «صور»

لم أتمد على كرسى القماش الملون

فى شرفة فندق صيداوى

لم أنشد مطلقا لجماهير بيروت

هل قلت أطفالى؟

لاحظ الطائرات الإسرائيلية العائدة (سائلة)، ومع سلامتها كانت المفارقة فى أن تترك خيطاً (كحبل المشنقة) أطول من الشرايين/ شرايين المقاتلين.

والشاعر يصرخ مع صرخات الأطفال، ويوضح لنا كيف قاوموا وحدهم فى صور وصيدا وبيروت، صورة للقصف الجوى والبحرى والبرى، وبيانات الشجب والاستكار، والإدانة على الورق فى سلات القمامة، والشاعر يشير إلى العرب وموقفهم المتخاذل، وذلك من خلال قوله: «أطول من أنابيب النقطه»، فمعلوم أن بلاد العرب هى بلاد النفط، ولذا فإننا نرى العربى/ الحاكم، يختبئ خلف هذا السطر الشعري بغزبه وعاره!

الشاعر يتمنى المشاركة فى القتال، ولكنه محروم منها، فهو حزين على هذا الوضع المأساوى، وهنا نجد بعداً وطنياً قومياً لدى الشاعر. وموسيقى حزينة تلمحها من خلال مقاطع قصيدته، وسخطه وتقمه على العدو وأعدائه، وهذه الأبيات قيلت فى وقت المأساة، وأثناء الاجتياحات فجاءت قوية كقصف طائرات الفانتوم، ومحركة كالقنابل الفسفورية التى مزقت وشوهت أجساد أطفال بيروت وصيدا.. صور.. يتابع سميح قصيدته فيقول:

أنا المحروم من شرف التفجير بديناميت الحب

أنا أسير الحرب المتمتع بحق الانتخاب

أنا المواطن المقيم دائماً على مجرود الزبالة

هل قلت أطفالى؟

لتزرد الأسرار أسرارها  
كامل هو الوضوح  
سلام روعي غير منقوص  
القصف برآ، وبحراً، وجوا  
بيانات الاحتجاج والإدانة  
دُمي الأطفال  
وجماجمهم المتقارنه  
تحت جنازير الدبابات المتقنه  
الخضرة المتلاشية في الضجيج  
وقع الأقدام المرتجفة تحت بقايا الأدوات المنزلية  
تكمش الأكف الفضة على فولاذ البنادق  
ويتابع قصيدته قائلاً في القسم الثالث منها، وهو بعنوان «اعتراف»  
تلك ليلاك  
على أرصفة العار  
بفي تتطوح  
وعلى أذرع البحارة الأغراب  
تنشال وتطرح  
تلك ليلاك  
دم في غرف التحقيق يرشح  
وصراخ حيواني  
بوحل الذل ينضح  
تلك ليلاك  
فهل تنكرما يا «بن الملوح»!!

كلية

تضمهر في الجوع وتبج

فاعترف يا «بن الملوح»!

لا تقل لي:

«خلها في القلب تجرح»

لا تقل لي:

كل ما في جسمك الميت يزري

كل ما في روحك الميت يفضح

فاعترف

يا «بن الملوح»!

الشاعر يستلهم التراث العربي القديم، من خلال قصة الحب العذري بين قيس بن الملوح، وحبيبته ليلي، وسميح القاسم يرمز للعربي بقيس، أما ليلي فهي الوطن السليب، فإذا كانت «ليلى/ الوطن» على أرضه العار، متاحة ومباحة للجميع، بين أذرع البحارة لاحظ صيغة الجمع» فهو ليس بحارًا واحدًا، ولاحظ دلالة الكلمة، فالبحارة، لا مأوى لهم ولا سكن معظم أوقات العام، تمامًا كما الإسرائيليون لا مأوى لهم، ثم لاحظ أن ليلي صراخاتها عالية مستغيثة ولكن أين ابن الملوح / العربي، ربما مات لكنه يتحرك ويتنفس!!

ينتقل سميح القاسم في أبياته ليقدم لنا صورة بطولية نادرة للطفل الذي فقد ساقيه نتيجة قصف الطائرات الإسرائيلية، ولكنه صمم على القتال بدون ساقين.. واتجه مدافعًا ومقاتلاً ناظرًا إلى الناصرة بعينه.. فهو يقاتل من أجل الناصرة وفلسطين، يريد العودة.. فالقتل، وقطع اليدين، والرجلين لن يثيأه عن الأمل المنشود يقول:

رأيت رأي العين

مقاتلاً في العاشرة

يمشي بلا ساقين

ووجهه...

لناصره

بمينها الكيله

بالشفة البتول

بالوردة الحمراء من الجديله

حبيبي

أميرة الفصول

تقاوم المدافع الثقيله!

ويخبرنا سميح القاسم في نهاية قصيدته عن كيمية قتال هؤلاء الأبطال، ومن أين يخرجون؟ صورة رائعة زين القاسم قصيدته بها.. فهم يخرجون من بقايا الردم في المخيم، ومن ترابه، يخرجون من الكهف.. الخرابات.. الخندق.. الشوارع.. الحرائق.. يتلاحم اللبناني والفلسطيني، وقد رمز الشاعر لذلك بقوله: «يأتون بالأرز وبالزيتون» الكل يتأزر لمواجهة العدو والمتريص بنا..

من ظل المخيم

يأتون

من خنادق التحدي

في شارع تهدم

يأتون

من كهف، ومن خرابه

براية الصمود والتصدي

ويصقون دمهم في جهة الدبابه

يأتون بالأرز، وبالزيتون

يأتون بالبيارق

يأتون في الحرائق  
يأتون  
من عكازة الشيخ  
ومن شهية الجنين  
يأتون بالحب وبالحنين  
بالموت واليقين  
يأتون  
فامد أذرع الدمار  
يا أيها التين

بهذه السطور المعبرة قدم لنا سميح القاسم لوحة فنية مليئة بالصور البلاغية، فنطقت هذه اللوحة وتكلمت عن ميدان الممركة بكل جوانبها، قدّمها لنا بنفس امتزج فيها الحزن والبكاء، بالصمود والتحدي، كل ذلك جاء بوصف دقيق لمجريات المأساة بمعان مناسبة للموقف، بالإضافة إلى الموسيقي الداخلية التي تماوجت على شكل القصيدة واندمجت مع المضمون الكلي للنص، فضلاً عن التكرار، والقافية التي تلمع بين فترة وأخرى.

قصيدة أخرى لسميح القاسم بعنوان «عمامة للمملوك، طربوش للأغا، وقداس لبيروت» يبدأها واصفاً حالة وحال أسرته من مجاعة وتشرد، متخذاً من «الخبز» أداة لصورته الشعرية، ومعلوم أن «الخبز» أساس الحياة، فيقول:

لا خبز غير وداعة الأموات  
فليكن الإدام  
وشلاً على الأحداق خلف الدمة المتعجّره  
ولك المجاعة والسلام  
يا أسرتي المفلوية المفلولة المتكبّره

القمحُ. هذا العام. منذور لحرب جلالته السلطان<sup>(١)</sup>.

وفي نهاية القصيدة يدعو سميح المقاتلين للثبات والصمود، ويدعو بيروت للانتفاضة وعدم التسليم، فيقول بنبرة الأسى والحزن، يدل عليها كثرة حروف العلة في المقطع، فيقول:

بيروت فانتفضي

وقومي من رمادك يا ابنة العنقاء

يا شرف الأوائل

بيروت

يا عار الطوائف والحمائل

والمشائر والقبائل

بيروت

يا حلمًا وحيدا

حوله مليون قاتل<sup>(٢)</sup>

ونجد سميح القاسم في «سريية الصحراء»<sup>(٣)</sup> قد التحم بالأرض وأصبحت الأم والزوجة، بل أصبحت كل شيء عنده، هذا بالإضافة إلى أن هذه الصحراء الشاسعة، سرابها يبهر العيون الساذجة، كفاح مريز ضد الأفاعي والعقارب، صورة رمزية يقدمها القاسم من خلال قصيدته. «سريية الصحراء»، وهي ترجمة وافية للواقع العربي المكلم المهزوم، وتحذير من اليهود الأفاعي، وحنين إلى الوطن الحبيب، ورجاء، وتوسل للبحر ليرحم الأهل، وتطلعات للمستقبل بعين فاحصة محبة، حياة المخيم وزخم المقاومة، سراب الصحراء الذي يركض وراءه اللاهثون على السلام الذليل، وما هم ببالفية، فيقول:

غريا تضيع الشواطئ

(١) سميح القاسم - الأعمال الكاملة - دار معاد الصباح، ١٩٩٣م، ٣/ ٥٤٦.

(٢) سميح القاسم - في سريية الصحراء - دار الجليل للنشر/ عمان، ط١ ١٩٨٥، ص ٨٤.

في زبد الذكريات  
ولي في الجنوب  
مطارج وجد بعيد قريب  
ولي في الجنوب  
هوي ليس يبلي  
تخبئه في مناديلها  
بنات المكلا  
ولي في الجنوب  
صهيل خيول  
وصيحات قتلى:  
ألا أيها الموت  
أهلا وسهلا  
لأنك عمر جديد  
وخبز، وشعر، ودقلى

أما قصيدته «ليلا، على باب فدريكو» والتي ينبّه فيها للخطر الداهم على الأمة العربية جمعا من قبل العدو الصهيوني، وتوسماته المتكررة والمنفذة حسب خطة وضعت في بروتوكولات حكماء صهيون.

لذا يتلهف الشاعر إلى الوحدة العربية من أجل الشرف والكرامة اللذين ديسا بأقدام اليهود في المسجد الأقصى وبيروت وسيناء والجولان... وغيرها من بلداننا العربية، وهو في نصه «على باب فدريكو» يعالج الوضع المنكوب بلغة الشعر، من خلال إحياءات أوردتها في أبياته، والتي يقول فيها:

فدريكو

الحارس أطفأ مصباحه

انزل  
أندا منتظر في الساحة  
فد... ريكو  
قتديل الحزن قمر  
الخوف شجر  
فانزل  
أنا أعلم أنك مختبئ في البيت  
مسكونا بالحمى  
مشتعلا بالموت  
فانزل  
أندا منتظر في الساحة  
مشتعلا بلهيب الورد  
قلبي تقاحه<sup>(١)</sup>

من الملاحظ أن القاسم في قصيدته يطلب الحماية من شخص أجنبي اسمه «فدريكو» بعد أن تخلي جميع الأهل والأصدقاء عنه في ساعة الضيق. (لا آية ذلك قوله في القصيدة نفسها:

انزل فدريكو  
وافتح لي الباب  
أسرع  
أندا أنتظر على العتبه  
أسرع

---

(١) الأعمال الكاملة: مصدر سابق، ١٧٥/٣ .

في منعطف الشارع

جلبة ميليشيا مقتربه

ومن القصائد التي صوّرت المأساة أيضا قصيدة «لن يَمروا»<sup>(١)</sup> للشاعر علي الخليلي وهي مقاطع قيلت في موسم النزيف والحصار أثناء اجتياح العدو الصهيوني لجنوب لبنان، ولقد وضحت أبيات القصيدة كثيرا من الصور البطولية الرائمة، إذ نجد أن عنصر البطولة موجود في هذه الأبيات، بالإضافة إلى الأمل الذي يخيم على الشاعر وكيف لا؟ وهو ابن الأرض المقدسة، بل يصوّر لنا بيروت بأنها الرقم الأخير، ولكن الصمود البطولي هو الذي أسقط كل الرهان.. يقول فيها:

والحائط الأخير

أكبر من واشنطن

أكبر من أوسمة الجنرالات

ناقلات الجند والديابات

والطائرات

والطائرات

والطائرات

أكبر من عواصم الصمت

ومن قبائل الموت

ومما يملك الملك والأمير

والحاكم الأجير

والشارع الأخير

لاحظ الإسقاط الرمزي من خلال قوله «عواصم الصمت»، وهو يشير بها للعواصم العربية، وهالحاكم الأجير، وهو يشير إلى الحكام العرب، إنها إسقاطات على الأمة العربية بخنوعها الذليل، وصمتها المرعب!!

(١) الخليج الثقافي العدد ١١٩١ - الاثنين ١٢ يوليو ١٩٨٢، ص ١.

ثم تأمل قول محمد شديد في قصيدته «بيروت»، وهذا القول ينبئ عن نفس مؤمنة بقضيتها حتى الموت، مصممة على التحدي حتى الرمق الأخير، يقول:

هل من حرٍّ أو طمَّاحٍ للعريه

لا تجمعه ومناثر بيروت مصير قضيه؟

ماذا يمد تبقَّى منا غير ضالِّتنا وتقامتنا

كم كان الأحرى أن لا تتجب ذريه

أو.. تقتلع الطفيلان من الأرض العرييه<sup>(١)</sup>

وله قصيدة أخرى بعنوان «آلهتنا الأقسام.. وبيروت.. والحرية» يقول فيها معرّضاً بالحكام العرب، والدول العربية، يقول في مطلعها:

لو جيرانا كانوا، لا عربا، بل من عشرين هوية.. جنسية

ولديهم بعض من شرف وإباء قومي.. وطني

وانقرست وسط ممالكهم صهيونية

تتزع الأرض.. تتمرّ.. تقتك.. تقترس الأطفال.. وتستهرت بالروح البشرية

لو جيراناً كانوا، لا عربياً، لتداعوا.. نهضوا يقتلعون جذور الشر

خلاصة نهج النازيه.

ثم يقول على الحكام العرب، واصفاً إياهم بالآلهة، ولكنهم أقزام أمام الآخرين، فيقول:

يا عشرون إلهاً قزماً متناحر

غدرًا ودماسئس حقد محموم وخيانات وتآمر

يا عشرون إلهاً صفروا.. صفروا

واندمسوا في قمقم إسرائيل المنتصر الظافر

ثم يتعرّض للشعب العربي الراضخ للذل والقهر بقوله:

(١) محمد شديد: نقلًا عن مأساة بيروت - مصدر سابق، ص ٢٤٠.

يا عشرين مدينة قهر، عاصمة زعموا.. تخطر فيها كل نهار،  
عشرون مسيرة موكب عار

يا عار التاريخ، وأي قباة عار للأجيال غدوتم، أي شنار؟  
ماذا اقترضت أجيال في رحم المستقبل من ذنب..  
كيما عنكم تراث العار!!!

عار تتحركم وهزائمكم، وحذاء الإسرائيلي يمرغكم!

وللشاعر الكثير من القصائد التي تصور المأساة، نذكر منها «عذراً لبنان»، «بيروت  
وهوان المري»، «أبدأ لن تهزمني يا نذل الروح»، «ثورة على الواقع»، «نهر الدماء  
وانحرف».... وغيرها من قصائد، ومن يقرأ قصائد الشاعر يلحظ حنقه وغضبه من  
الشعب العربي، وحاكمه المستبد، ولذا كان كثير الانتقاد لهذه الشعوب.

ويبدو أن مأساة لبنان كان لها النصيب الأكبر من الشعر، وأيضاً كان لها الفضل على  
الشعر، من حيث أنها كانت مصدر الهام الشعراء، والشعر الذي قيل حول المأساة نبّه إلى  
كثير من الأمور والقضايا منها:

أولاً، خطورة الموقف، والتفكك بين الدول العربية.

ثانياً، المقاومة الفلسطينية هي درع يحمي الأمة العربية.

ثالثاً، أطماع إسرائيل وعملائها في المنطقة.

رابعاً، دعوة واضحة إلى الوحدة، والوقوف صفاً واحداً لمواجهة العدو المتريص بنا.

خامساً، دور المقاومة اللبنانية في المعركة<sup>(١)</sup>.

وهذه الأمور نلمسها في معظم القصائد التي قيلت في المأساة، ومن كافة الشعراء  
العرب.



---

(١) د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، ص ٢٢٢.

## الفصل الثالث

---

تأثير الأساقفة على الشعراء الفلسطينيين خارج الأرض المحتلة



مأساة لبنان كانت قاسية على قلوب الشعراء الفلسطينيين في شتّى أنحاء العالم، تقنى شعراء فلسطين بالمأساة، وما أدت إليه من ضياع وفرقة، وانطلقت حناجر الشعراء باكية حزينة مصورة فراق الأهل والأحبة، ناقمة على المتآمرين، ساخطة على العدو الصهيوني، ممجدة الشهداء الأبطال الذين سقطوا دفاعاً عن الشرف العربي، أعداد كثيرة من الشعراء نقلوا مأساة لبنان عبر نشيخ شعري مؤثر وعاطفة جياشة ملتهبة، من هؤلاء الشاعر معين بسيسو، الذي صور لنا ما جرى في تلّ الزعتر من هدم وقتل من خلال قصيدته «برقية إلى تلّ الزعتر»<sup>(١)</sup> ونجد في هذه القصيدة تلاحماً بين الشعر والقنبلة التي كانت تقصف المخيم، تلاحماً في وصف دقيق لمأساة شعب تلّ الزعتر، وتصف القصيدة تفاصيل الفاجعة، يقول:

«تلّ الزعتر»

صار جدارك للشعراء، جريده

والقنبلة بكفك، تنفجر قصيده

وضفائر كل نساء الأرض

تتمني أن تصبح علما لك

تلّ الزعتر

كل ينابيع وأشجار فلسطين دبايمس

بشعر تسائك

لاحظ استعمال الشاعر لـ «كل» التي تقيد العموم والشمول، وليست برقية معين بسيسو إلى تلّ الزعتر، برقية حب وتقدير فقط، بل هي لبطولة جيل صمد في وجه الفاشية الانزالية، إذ كانت بداية المؤامرة على الشعب الفلسطيني، ومعين ابن المخيم

(١) معين بسيسو: الأعمال الشعرية الكاملة- دار العودة بيروت، ط٢، ١٩٨١، ص٦١٧ .

يكتب بدمه برقية لأبنائه وأطفاله، الذين ماتوا عطشا في المخيم، ويشير - أيضاً - إلى  
الزعماء العرب موافقهم المخزية بقوله:

كل شرايين الجنرالات الرُكع

فوق خرائطهم

أريطه لحذائك

والطائر والثمرة والسمكة

وجميع دواوين الشعر

تحلم أن تصبح الغاما

تحت ترابك

«تلّ الزعتر»

يا جرحا يتسع ويصبح

هذا الوطن الأكبر

لاحظ البعد الوطني يتجلّى عند الشاعر حين يربط بين تلّ الزعتر في لبنان، وبين  
جبل الكرمل وغزة في فلسطين، ويظهر البُعد القومي، والارتباط بالأرض عند الشاعر،  
وذلك في قوله:

غنيتُ طويلا للدالية على جبل «الكرمل»

وكتبت كثيرا للزيتونة في جبل «القسطل»

وحملتك يا غزة

آه على غزة

كان المنق يدوب كشمعة

والأطفال وراء المتراس «بتلّ الزعتر»

في جسر الباشا والنبعة ...

يخترعون لحقل في تلّ الزعتر

وردة ...

الجرح واحد... فتلّ الزعتر هو امتداد للجرح الفلسطيني، والارتباط الروحي، وحب الأرض واضح عند الشاعر، وماجس الخوف يلاحق الإنسان الفلسطيني أينما وجد، وتلّ الزعتر جزء من مأساة العربي المعاصر، فمأساتها تذكر بالمآسي والمحن الأخرى، كفضة، والكرمل، ومعارك جبل القسطل، وغيرها من معارك.

ويتابع الشاعر قصيدته مبيناً بأن تلّ الزعتر قاتل وحده، وصمد في وجه قوي الشر، وأصبح صموده أسطورة تاريخية، تتحاكي بها الأجيال، فيقول مخاطباً أبطال التلّ:

وذراعك مأسورة مدفع

والنجمة تحلم أن تصبح.

فوق ذراعك شامه

الآن لكل حمامه

طارت من صدرك يا «تلّ الزعتر»

الآن لكل فراشه

قاتلت الفولاذ على جسر الباشا

الآن لتلك الشمعه

صارت أصابع بارود في النبعه

أنا اقطع كفى

أرسلها لك يا «تلّ الزعتر»

يرقية

وتتضح المأساة لنا أيضا من خلال أبيات الشاعر في قصيدته «أكتب جسدي.. كي  
تقرأ جسدي»

ومأساة بيروت هي مأساة تلّ الزعتر وجنوب لبنان وفلسطين، فالخنجر المغروس واحد، تحمله يد حاقدة مسمومة، والجسد المذبوح هو الجسد نفسه رغم اختلاف المكان والزمان، رغم اختلاف المتأمرين، لكن الأمر واحد، والفريسة واحدة:

بيروت وحيد

والجرح وحيد

والشاعر يا بيروت وحيد

الدم سيبقي يتدفق من أجل الحرية.. من أجل بيروت وتلّ الزعتر، والعروية، وأمل  
الشاعر قوي وإيمانه بالثورة عميق، فما دام الدم يراق، فلا بد من بزوغ صبح الحرية،  
ويتضح ذلك من قوله:

الدم لم يتمب

والدم لن يهرب

وسأبقي أكتب

الآن بتلّ الزعتر

كيس من رمل

يتزوج شجره..

أيتها الثورة،

لك جسد الأرض<sup>(١)</sup>

وفي قصيدته «مجنون تلّ الزعتر»، لاحظ المثنوان يتطابق مع «مجنون ليلى» وكان  
عشق «تلّ الزعتر» استبد به، أو أن شاعرنا أصيب بداء الهيام، كما أصيب قيس من  
قبل، فراح يقول:

أبها التل العظيم هذي لحظة انتصارنا

فكلما تسافر السكين في رقابنا

تخرج الأشجار من أجسانا

وتخرج النساء والأنهار من أحجارنا

وتسقط القصائد، الجرائد، المواسم، الخواتم المجففة

على كراسي الأرصفة

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٢٨ - ٦٢٩.

نحن ما قتلنا

نحن قد زرعنا<sup>(١)</sup>

في لحظات سقوط العواصم، والخواتم والجرائد، وما تشير دلالة كل مفردة منها، يؤكد الشاعر إننا لم نقتل بل (قد) زرعنا، ولاحظ استعمال (قد) التي تقيد التحقيق، مع ملاحظة استعمال مفردة «الزرع» التي لا بد وأن يثمر.

وبيروت سيطرت على الشاعر واستحوذت كل أفكاره، ففي فترة الحرب والدمار امتشق الشاعر قلمه موضعا ما جرى للمدينة المحارية، فكل شيء في المدينة شاهد على الدمار والخراب، وقصيدته «بيروت أصبحت بعيدة»<sup>(٢)</sup> أول شاهد على الجريمة التي حلت بها وبأحيائها، يقول فيها:

الشاعر السعيد في المطار

القارئ السعيد في المطار

والطريق للمطار آمنة

والطائرة

لم تكن مواطنة

وليس كيس الرمل وحده

هو البطل؟

وهذه بيروت

لا تحيا ولا تموت

بين جنتين تكتب الجريدة

وبين جنتين تطبع الجريدة

وبين جنتين تقرأ الجريدة

والشاعر السعيد في انتظار الطائره

(١) المصدر نفسه ص ٦٢٥ - ٦٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٤٠ - ٦٤٢ .

والقارئ السعيد في انتظار الباخرة

وليس كيس الرمل وحده

هو البطل؟

وهذه بيروت

وراء حائط تحيا .

وراء حائط تموت ..

كل شيء معطل في بيروت التي لا تحيا ولا تموت، ولاحظ أن الكتابة والطباعة والقراءة وهى أفعال تحتاج لوقت، كل هذه الأفعال تُصنَع بين الجثث المتراكمة في الشوارع والأزقة.

ثم ينتقل الشاعر بعد وصفه لصعوبة وفداحة الموقف في بيروت ومطارها، مخاطباً المدينة قائلاً:

أيها المدينة، السعابة، الرصاص، الرغيف

أيها الزجاجاة السفينة المكسورة التي تضاجع

البحارة القتلى على الرصيف...

ونلمس الألم ونشعر به عند الشاعر من خلال قصيدته «إلى جدران بيروت»<sup>(١)</sup>، والتي يصف فيها الوجد والألم، وسمود الأبطال والأطفال في لبنان يموتون جوعاً، ويتحدي الشاعر في نصه كل من يظن بأن أهل لبنان سيخضعون وما هم بخاضعين .. يقول:

هنا ..

متراسنا هنا

وهذه الطيور في سمائكم

أطفالكم، أطفالنا ...

رفاقنا

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٤٢ - ٦٤٤ .

نقسّم الرصاص في حواصل الطيور.

بينكم، وبيننا

حبات قمح

حبة لكم، وحبّة لنا..

مترامُنًا هنا

نقص بالأصابع المنديل فوق جرحنا

قطعة لجرحكم

وقطعة لجرحنا

أطفالنا

سيحملون كيس رملكم

أطفالكم.

سيحملون كيس رملنا

وهذه إشارة واضحة للتضامن والتعاون بين المقاتل الفلسطيني وأخيه اللبناني على  
ساحة القتال في بيروت ونجد فيها الفخر والوحدة اللتين نحنُ إليهما في هذا الوقت.

وأما قصيدته «غزلان تركض نحو الشمس» ففيها نجد وصفا دقيقا للقتلة، سفاكي  
الدماء مبينا بأن القتلة لن يرحموا هذا الدم أينما وجد في بيروت أو غيرها<sup>(١)</sup>.

وكذلك انطلقت حنجرته ناقمة مجلجلة في الأفاق، بقصيدة رسالة مفتوحة إلى قلمة  
الشقيف مصورًا فيها البطولة الفذة... الصخرة القاسية التي تحطمت عليها آمال  
الفزو الصهيوني، وكمن محاولة يائسة باءت بالفشل لاحتلال القلمة.. ومرد ذلك  
لتضحية نفر قليل من أولئك الشباب الذين تذروا أنفسهم للدفاع عن دينهم وأرضهم  
وفازوا بالحياة الآخرة، وفي رسالته إلى قلعة الشقيف نلمح عدة أمور منها:

تصوير البطولة الرائعة التي خاضها الفدائيون المحاصرون في القلمة، رغم  
مساعدات أمريكا المستمرة لإسرائيل، ثم الصمت العربي المطبق، ثم تساؤلات الشاعر

---

(١) المصدر نفسه.

كثيرة كيف قاتلوا وحدهم؟

حقاً لقد قدم لنا معين بسيسو درة ثمينة وواحدة من أجمل القصائد التي قيلت في حرب عام ١٩٨٢م؛ لأنها تتبع من نفس حزينة صادقة. ذاق المرّ والقتل والتشريد، وعانت الضياع والحرمان، يقول بسيسو:

عيون أطفالكم

أزرار قمصانكم

أصابع أطفالنا ملاعق

اشربوا بها حبركم، وامضفوا الورق

أوشكت تدق ساعة حائل الفرق

يتابع الشاعر قصيدته معلناً سخطه على هذا العالم، موضعاً وصفاً حياً لمعركة قلعة الشقيف، مدبجاً رسالته الشعرية بأروع الصور البلاغية من تشابيه واستعارات التي استطاعت بمعانيها أن تعبر أجواء الوطن العربي، لتصل إلى القاصي والداني، وينظر الشاعر نظرة فاحصة لمن حوله.. نظرة حزينة/ فرحة، حزينة على الوضع المأساوي الذي أصبح عالمنا العربي يعيشه هذه الأيام من صمت وخذلان، وفرحة لأولئك الأبطال الذين سيطروا أروع الملاحم البطولية في هذا العصر المتخاذل، ولذلك يطلب منا أن ننظر إليهم وهم يكبرون، وهم يسطرون الانتصارات، فيقول:

وانظروا انظروا

إن قطرة الدم الفلسطيني

تكبر الآن تكبر الآن

تصير سفينة تملأ الأفق

اشربوا حبركم، وابتلعوا الورق

وعلقوا على حبل الفسيل برقياتكم

،علقوا الخطب

وقولوا أي شيء لنا

اكتبوا أي شيء لنا  
امنوا أصواتكم بدهان الخطب  
ضعوا على وجوهكم أقنعة اللهب  
ولا تقولوا شيئاً واحداً.. لا تقولوا  
إننا عرب<sup>(١)</sup>

لاحظ حماسة الشاعر وتعالى نبرات صوته المحتدة الغاضبة على الأمة العربية آية ذلك تدفق أشغال الأمر من المقطع، ثم صرّح بذلك من قوله: «لا تقولوا إننا عرب»!!

ومن قلعة الشقيف في جنوبي لبنان ينقل الشاعر معين بسيسو في قصيدته "ال فلسطيني اسمه ياسر عرفات" وصفاً للحصار الذي فرضته قوات الاحتلال الصهيونية لمدينة بيروت، وحصار المقاومة الفلسطينية وقيادتها داخل عاصمة الفقراء، وأبياته الشعرية كلها تمجيد للبطولة الفلسطينية، ولكن الصورة التي رسمها من خلال أبياته، هي صورة للمقاتل الفلسطيني الذي وقف كالتود الشامخ في وجه القوات الصهيونية المدعومة بمختلف أنواع الأسلحة، بينما هو مجرد من السلاح إلا سلاح عقيدته وإيمانه بقضيته، فيقول:

هذا الصهيل، وأنت باق في ضمك  
هذا الرحيل، وأنت باق في دمي  
هذا الحصار، وأنت باق في يدك

ويبايمونك  
إنك الكبش المكحل  
ذو الجدائل  
إنك الكبش المسريل  
بالقرنفل والمستابل  
إنك الكبش الملك

(١) جريدة البيان - العدد «٧٥٢»، ٩ يونيو ١٩٨٢ م.

نبتت بصدرك كل أعشاب الخناجر

أيها الكبش الملك<sup>(١)</sup>

لاحظ التكرار في المقطع "أنت باق" ثم يتوزع منها البقاء، على النحو التالي:

- الفم، مضافاً لضمير المخاطب "ك".

- الدم، مضافاً لضمير المتكلم/ الذات "ي".

- اليد، مضافاً لضمير المخاطب "ك".

إشارة إلى الحصار المفروض على الفلسطينيين، فالذات/ الأنا، واقعة بين ضميري المخاطب، فكانها/ الأنا، بين فكي الرحا.

ثم لاحظ استعمال بيسسو لكلمة "الصهيل"، وما بها من ظلال فروسية وشجاعة عنترية، ثم يقول:

فلمن رقاب الخيل حبلى بالمسل

ولن تمبئ من حوافرها الجرار

ونحن من شرك إلى شرك نسير

كان في دمنا الشرك

والآن أنت هنا

وقرص الشمس في يدك الرغيف

وبين متراسين تزرع نخلتين

وكتتظر،

دوري، طواحين الشجر

وأنا وأنت هنا

ووجهك صار عاصمة لنا

وأنا أحبك وسط هذا الرعب

---

(١) المصدر نفسه.

في هذه المقاطع نلمح حب الشاعر للقائد (عرفات) حباً يكاد يصل إلى درجة  
المبالغة، ولكن بصورة شعرية رائعة، مليئة بلوحات فنية، وخيوط متشابكة، وألوان  
مختلطة ورموز معبرة.

كالقمر المطارد

أين يا قمر الخنادق تختبئ

وأنا وأنت هنا

ومن كفيك وجهي يبتدئ

هذا هو المتراس دالية من النيران

يكثر الشاعر من استخدام بعض المفردات التي لها علاقة بالواقع المحاصر الملتهب  
مثل: الخندق، المتراس، الدم، المشنقة، المقصلة، الحصار، الذئب، الحجر، الدالية  
والأرض، وكل هذه الأشياء مرتبطة بحب الإنسان لوطنه، ويكاد يتكلم الشاعر في  
مقاطعه مع القائد، فهو يستخدم ضميري المتكلم "أنا"، والمخاطب "أنت"، وهو يبكي حزناً  
وألماً، ويتضح بكاؤه وحزنه من خلال معانيه وألفاظه التي تثير الانفعال والإحساس على  
المقاتل الفلسطيني في لبنان؛ لأنه وقف وحيداً في المعركة غير المتكافئة، ولكن ما زال  
الضدائي رابضاً غير مستسلم، يقول:

ويطاردونك

كل من واد البيارق والبنادق

راح يحضر في الهواء

وفي التراب

لكي يندأ!

كان لحصار بيروت، وصمود الفلسطينيين، ورحيل المقاومة وخروجها من المدينة،  
وتخاذل الجميع أثره الكبير في النفوس، وهذه فدوى طوقان ابنة فلسطين تكتب حزناً  
على شباب الوطن.. الأبطال.. ولقد صورت الضدائيين بأبلغ الصور منهم الحبيب، والأخ،  
والأب، والماء، والشرف، وبخروجهم ستبقى ظمأى لأنهم النبع الدفاق الذي يمدنا بالري  
كلما جفت ينابيع الحرية، وكلما ضنُّ الأخوة بالماء، هؤلاء الأبطال هم من ينير لنا

الطريق للهد المأمول، تقول فدوى طوقان في قصيدتها:

«ذهب الذين نحبهم»

نسرًا فنسرا.. غالهم وحش الظلام

سرق السموّ من الأعالي.. آه يا وطني

عليك من الدم الغالي سلام

من أجلك انضطت عمود دمائهم

حبات مرجان، كتوز لألئ.

«ذهب الذين نحبهم...»

لا صوت للأحزان، انظر

أورقت صمّتاً على شفّتي أحزاني

وأطبقت الحروف شفّها

تساقط الكلمات صرعى مثلهم،

جثثاً مشوهة، ترى ماذا أقول لهم؟<sup>(١)</sup>

والفرية وعذابات النفي والتشرد خلقت عند الشاعر هارون هاشم رشيد نموذجاً واضح المعالم في قصائده، وقصيدته "عرض تلفزيوني لأطفال فلسطين" توضح لنا مدى تأثر الشاعر بحصار بيروت، وبيّنت لنا نقمة الشاعر على أولئك المتأمرين المتخاذلين، بل نجده مناقلاً بالكلمة، راضماً رأسه إجلالاً وتقديراً لأطفال فلسطين، الذين حملوا السلاح، وقاوموا، وما زالوا على الدرب، يقول في قصيدته:

من رأى الأطفال

في عمر الزهور

من رآهم عند «صيدا»

---

(١) نقلاً عن مأساة بيروت في الشهر: ص ٢٥٩.

وعلى أبواب «صور»

من رآهم في الراشدية

تحت الشمس..

من غير قبور؟<sup>(١)</sup>

يتحسر الشاعر، ويتقطع حزناً وألماً حين يرى أشلاء أطفال فلسطين متناثرة هنا وهناك، لا تجد قبراً تدفن فيه، تلهو بها مخالب الغريان، وتمزقها أسنان الضباع، يقول:

ها هنا رأس،

هنا رجل،

هنا بعض الثياب،

هذه مريلة ممزقة

مرمية فوق كتاب

هذه مدرسة،

مرت عليها، طائرات الفزوة

خلتها خراب

من رأى الأطفال

من يعرف،

ما معنى الطفولة

أي أحلام جميلة

أي آمال نبيلة.

ويربط الشاعر بين مجزرة دير ياسين، وبين صبرا وشاتيلا ريبطاً واضحاً، من حيث المقتول والمعذب والمشرّد، فهو نفسه في كلتا المجزرتين، وكذا القاتل واحد فيهما، وكذلك كان موقف الجمهور/ العرب منهما واحد، يتمثل في الصمت الذليل، ويصور لنا هارون

---

(١) الخليج الثقافي - ملحق العدد ١٢١٨، الشارقة ٩ أغسطس ١٩٨٢، ص ١.

الأطفال المقتولين، وكأنه ينقل لنا وصفاً حياً وواقعاً مريراً، يقول:

قتلت في هذه الأنحاء غيلة

عبرت من "دير ياسين"

إلى "صبرا"

وحطمت في "شتيله"

من رأى،

كيف يدوس الغزو

آلاف اليراعم

عبرت من فوق

حسّان، وعدنان، وهاشم

قطعت ساق سميد

مزقت صدر مزاحم

شوّهت ليلى

وفردوس

وروزيت، وهانم

لا يخفى على القارئ أن هذه الأسماء المتناثرة، أسماء رمزية لآلاف الأطفال الفلسطينيين المشردين. ويتابع الشاعر عرضه لأطفال فلسطين قائلاً:

من رأى الأطفال

في الشمس،

عرايا في الدروب

من رآها "كربلاء"

مرة أخرى،

بصيداً والجنوب

من رأى جيش هولاكو

بالمصابات يؤوب

وفي نهاية قصيدته يبين لنا الشاعر من خلال سؤاله المتكرر، أن هناك الكثير من الناس من شاهد وسمع ورأى، ولم يبد حراكًا تجاه الأطفال الصامدين، وهو يشير بهذا إلى الحكومات العربية التي تقف مكتوفة الأيدي، لا تملك إلا الإذانة أو الصمت على الرغم من أن القتلى أطفالنا/ أطفالكم، كما يقول:

من رآه

من رآهم

من رأى العرض الحزين

من بكى منكم،

ومن أطبق عينيه

على شجو الأنين

إنهم أطفالنا،

أطفالكم.

جيل الصغار الصامدين،

فلماذا الصمت،

هذا الصمت،

كم من واحد منكم، يدين

أبيات قصيرة ومعانٍ معبرة، ومؤثرة كثيرة، استطاع من خلالها هارون هاشم رشيد أن يقدم لنا عرضًا رائعًا لأطفال الصمود، راسمًا أجمل وأنقى صورة لأطفال مخيمات جنوب لبنان. ويصرخ هارون هاشم رشيد مع الصامدين في بيروت، وفي صيدا، متحديًا العقبات والصعاب متشبثًا بالأمل في النصر، فيقول:

صرخ صامدين  
في «بيروت»، في «صيدا»  
وفي «الدامور»  
تقاتل الحجارة، والأشجار  
والطيور  
تواجه النيران والرصاص  
بالصدور  
وأنتمو في الصمت  
في الخذلان  
لا تفنيكم الأمور<sup>(١)</sup>

أما الشاعر عصام ترشحاني في قصيدة 'حرب السنبله'، وهي مهداة إلى الأبطال  
المقاتلين، فتلخص أبياته كل ما دار في بيروت أثناء الحصار من تشرد وجوع، وقتل  
للأبرياء من الأطفال والشيوخ، ثم يرصد بأبياته صوراً لمذبحة صبرا وشاتيلا، فيقول  
معرضاً بمذبحة أيلول الأسود<sup>(٢)</sup>:

هل للمذابح نكهة  
يهوي على إيقاعها  
ورق الخريف...  
أم أن أيلول المبجل  
صار من عاداته  
بعث النريف؟

---

(١) الخليج الثقافي، ملحق المدد (١١٧٧) الاثنين ٧ من رمضان ١٤٠٣هـ - ٢٨ من يونيو ١٩٨٢م، ص ٧.

(٢) عصام ترشحاني - حرب السنبله - منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٨٤، ص ٧٠.

ماذا أقول لأمتي..؟  
والوحش في الجبناء يكبر  
كلما نام الحمام ( ... )  
يا أبرياء الأرض  
إن دماءكم  
حرية تنمو  
وتنهض للتحدي من جديد  
ممتدة.. ما بين حنجرة الياب  
وعودة النمناع،  
في جسد الشهيد  
جفلات براعم روحنا  
هرمت صبايانا الثكالي  
واستفثت دم الشهيد

في قوله "إن دماءكم حرية تنمو"، يلاحظ دلالة التركيب في الجملة المصدرية بـ "إن"  
التي تقيد التوكيد، وعليه فلا حرية بدون إراقة الدماء، أو أن الدم المراق هو جنود  
الحرية التي أخذت في النمو حتى تصبح في القريب شجرة باسقة سامقة.  
كما يلاحظ طبيعة الخطاب في صدر الأبيات "يا أبرياء الأرض"، ومن ثم تصبح دماء  
الأبرياء حرية تبرز وتترعرع وتأتي أكلها بإذن ربها.

ويقول معرضاً بمنبحة "صبرا" في الزمن المباح، حيث شظايا الفدر:

ويبين بادية  
من الأشباح  
"صبرا" عشاء الموت  
في الزمن المباح

صبراً مهيمنة

كاشلاء الإله<sup>(١)</sup>

على الرصيف

صبراً

شظايا الفدر،

والأسرار،

والصيف المخيف

وينتقل الشاعر إلى رثاء وبكاء على بيروت، بعبارات حزينة، إذ نجد نفسه تسيل الماء  
وحزناً على ما حدث في المدينة من هدم البيوت وتخريبها، يقول:

هل أبدأ الآن البكاء

على دمي المهدور

والمنسوب ظلماً للمرب..؟

هل أبدأ الآن الرثاء

وجثتي عرش،

لمومياء العرب..؟

خطفوك من لفتي.

ومن رؤياي..

من وقتي.. ومن صمتي..

خطفوك يا بيروت واجتمعوا

على عمل يفرقنا،

على رعب يلاحقنا..

---

(١) تجاوز من الشاعر لا يليق.

ولكننا..

سنذهب حيث تتصل التمور

بروحها الأولى

وحيث تموت صحراء

وتنهض قامة أخرى

الشاعر في المقطع على الرغم من تساؤله تساؤلاً استكثارياً عن الموقف العربي المتخاذل والذي يدعو إلى البكاء، ولكن هل يبكي شاعرنا على نسبته للعرب، حيث التخاذل والخنوع أم يبكي رائيًا شهداء المذابح في لبنان؟! وعلى الرغم من ذلك فإنه يعلن التحدي والصمود في قوله: «سنذهب حيث تتصل التمور بروحها الأولى...»، وللشاعر قصائد كثيرة، تصور المأساة، نذكر منها: «سلاماً لأمي»، «الخروج»، وغيرهما.

ويقول عصام ترشحاني في قصيدة له بعنوان «بيروت ٨٢»:

صمت الأكاسرة العرب

سقط القياصرة العرب

هل ينصب الصيف الذي

شريت حرارته دمي؟

هل تنصب السنة التي

جرحت عميقا

بعض أعواد الفضب؟

بيروت لم تسقط

لكنه الزمن الذي احترقت

عقاريه...

على مرأى العرب..

بيروت حاصرها الغزاة،

من الحلود،  
إلى وريد الماء..  
من جوع الصفار،  
إلى اندلاع المقصله..  
بيروت تلتهم القبار المدلهم  
وناقلات الموت،  
والرعب السماوي المباغت،  
والهدايا القاتلة<sup>(١)</sup>،

ويختتم الشاعر قصيدته بأبيات تدلل على صمود بيروت وحدها، وقاتلها وحدها  
أيضاً يقول:

بيروت متراس يقاوم  
بيروت منذنة النشيد  
إلى الكفاح  
ودم... يرفرف كالحمام  
فوق ساحات الصباح..

وللشاعر قصائد أُخرى في المأساة، نذكر منها: «يوميات الورد المحاصرة»، «قلمة  
الشميف».. وغيرها.

أما الشاعر عز الدين المناصرة فيصور الشهيد وهو مكتمنٌ بألوان العلم الفلسطيني  
الأربعة (الأخضر/ الأحمر/ الأبيض/ الأسود)، وفي هذه إشارات عديدة، إشارة إلى أن  
الوطن يلازم الفلسطيني حتى في داخل القبر، وإشارة إلى أنه لا يحتوي الفلسطيني  
سوى وطنه، وإشارة إلى كثرة أعداد الموتى فلم يكن الكفن من اللون الأبيض كما هو  
معروف إنما تعدها إلى ألوان أخرى... يقول عز الدين في قصيدته «بالأخضر كفناه».

---

(١) عصام ترشحاني: يوميات الورد المحاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العربي - دمشق ١٩٨٣، ص

بالأخضر كُفناه

بالأحمر كُفناه

بالأسود كُفناه

نزف المطر على شجر الأرز لذكراه

وعلى الأكتاف حملناه

بكت المزن البيضاء لمرآه

دمه ينزف، والبدوية تنتظر الأيام

دمه ينزف، زغرد سرب حمام

والبدوية تنتظر حبيباً

سيزور الشام...<sup>(١)</sup>

فعلى الرغم الدماء التنازفة «يلاحظ تكرارها» فإن البدوية «رمز الوطن» تنتظر حبيبها «النصر» وسط زغاريد أسراب الحمام، مع ملاحظة تحديد المكان «الشام».

ويقول عز الدين في قصيدة أخرى تحت عنوان «جفرا.. أرسلت لي دالية.. وحجارة كريمة» مصوراً القتل في بيروت، حيث أصبح أداة اللهو للإسرائيليين، فيقول:

زمنٌ مرَّ جفرا.. كل مناديلك قبل الموت تجيء

في بيروت، الموت صلاة دائمة، والقتل جريدتهم

فهوتهم، والقتل شراب لياليتهم

القتل إذا جف الكأس مفيئهم

وإذا ذبحوا.. سمّوا باسمك يا بيروت<sup>(٢)</sup>

ثم يصوّر بيروت، فهي وجع التبع، وهي قلادة مكسورة، وهي مهمة الصيادين إذا اشتد غضب البحر، ثم يتساءل - بحمسة - ماذا تفعل بيروت وهي بين فكي الرحا،

(١) عز الدين المناصرة، الأعمال الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٤م، ص ٢٧٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٣٨.

أمامها الروم بجحافلهم، وخلفها أيضاً الروم بدباباتهم!! نراه يقول في القصيدة نفسها:

هل كانت بيروت عروساً، هل كانت عادلة.. ليست بيروت

إن هي إلا وجع التبغ المنظوم

حبات قلادته انكسرت في يوم مشؤوم

إن هي إلا هممة الصيادين إذا غضب البحر عليهم

.....

ما كانت بيروت، وليست، لكن تتوافد فيها الأضداد

خلفك روم..

وأمامك روم!!

وإذا كانت الروم تحاصر الفلسطيني من أمامه ومن خلفه (إشارة إلى إسرائيل ومعاونيهم من العرب)، فإن عز الدين يحذر العرب بأن بيروت ستصبح محتلة كالخليل وغيرها من المدن الفلسطينية، وما المتعاونون مع إسرائيل سوى واهمين، مفرّج بهم، فيقول في قصيدته «يا أخضر.. إنهم يتريصون بك»:

تحجّرت العقول

إن لم نقلها في وجوههم

ستصبحو ذات يوم فوق سمراء الطلوع

يا سيدي إنني أرى ما لا يرى

وأشم رائحة

أرى سماً شهياً قدّموه لقتلنا

هو في طعامك

وأرى الخليل حبيبتي نهياً لتجار الممالك

وأشم رائحة

فحاذر إنهم حرياء تظهر في الفصول

أخشى إذا طلع النهار تصير بيروت

الخليل<sup>(١)</sup>

ويمكننا أن نرى أبعاد المأساة اللبنانية في شعر عز الدين المناصرة في قصائد كثيرة منها «دموع الكنعانيات»، «ظل يركض حتى الرصاصة»، «لن يفهمني أحد غير الزيتون»، «جفرا لا تؤاخذينا»... وغيرها من القصائد.

أما الشاعر عبد البديع عراق فيخاطب الأمة العربية من المحيط إلى الخليج على لسان شهيد لقي حتفه في صبرا وشاتيلا، ومخاطبة الشهيد للأمة بها نبذة التحدي والصمود، وإن كنا نلاحظ فيها الأمل والحزن على ما آلت إليه الأمة كلها من ضعف واستكانة. يقول في قصيدته «شهيد من صبرا يتحدث»: <sup>(٢)</sup>

إنني لستُ القتيلُ

اسألوا كل الخناجرِ

والحناجرِ

والسيوفِ

اسألوا كل الجرائدِ

والمنايرِ

والدفوفِ

ستقول:

إنني لستُ القتيلُ

فاسمعوها:

إن قتلى مستحيلُ

أنا حيٌّ

إنني ضد الفناء

---

(١) المصدر نفسه: ص ٢٩٢.

(٢) عبد البديع عراق، إبداع الحجر، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٤٩.

إنما أنتم كأحياء، كأموات، سواء

أسألوا وجه الشهيد

واسألوا قيد الحديد

واسألوا كل الثكالي

واسألوا يُتَمِّ الصبايا

إنها تبرأ منكم

إنها تبيكي عليكم

فاسمعوها:

وايعدوا الأوهام عنكم

إنني لست القاتل

إنما المقتول أنتم!!

نلمح في ظلال هذه الأسطر استلهام الشاعر للنص القرآني ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

كما نلمح شيها التهكم والسخرية على من وقف مسلوب الإرادة من أبناء الأمة - وما أكثرهم -، والشعر كمادته - دائماً - يسجل الأحداث بتفاصيلها الدقيقة، وهو ما حدث مع عبد البديع عراق حينما راح يصوّر «إيفا ستاهل» تلك المريضة السويدية وزوج أحد المناضلين الفلسطينيين، استشهد زوجها في حصار «تل الزعتر»، وهي أجهض حملها، ويُتِرت ذراعها، وكُسرت ساقها أثناء الحصار، وظلت صامدة مع من بقي من المقاومة، وفي ذلك يصف عبد البديع تلك المرأة في قصيدة اتخذ من اسمها - إيفا - عنواناً لقصيدته، فيقول:

يدك المبتورة سيف

وعظامك سيف

ولسانك سيف،

العظم، السيف، يمزق وجه الزيف

يفتال سياج الصمت

يحطم جدران الخوف

ويطارد أشباح الموت بتل صمودك يا شعبي

ويشبه العظم، يطول السيف جميع كراسي الحكم

ويدمر كل بحار الزيت،

حقول النفط،

رؤوس الظلم

ويصول السيف، يجول، يفني، يهتف كل صباح يهتف كل مساء:

«التل الصامد، لا يركع»

«يقتات الجرح، ولن يركع»

يا هذا الحاكم فلتسمع

يا ذاك الحاكم فلتسمع

ما عاد يهز ثرانا خوف

أو يخدعنا وجه الزيف

أو يستشري فينا الضعف

«تل الزعتر» هزم الخوف

وعظام الأطفال السيف

«إيقاء» صارت ذاك السيف

وعلى نفس النقم يعزف لحن الإدانة للأمة المربية ممثلة في نظمها الحاكمة، وذلك

في قصيدته «عار وإدانة»، إذ يتخذ عبد البديع طفل الحجارة الفلسطيني رمزاً وقناعاً

ليقول من خلاله معرضاً بالأنظمة المربية الحاكمة:

أخرجت جاه الأنظمة

وكشفت زيف الأوسمه  
ووسام صدرك من حجر  
حاصرت أصحاب الكراسي والعروش  
ومظاهر التتميم أو عظم الكروش  
ثم يتذكر مذابح صبرا وشاتيلا وغيرها من المذابح العريية، فيقول:  
هل يذكرون القدس أو يافا وآذان المساجد؟  
ونداء من لبيّ وكبير؟  
هل غاب صبرا أو شتيلا والدماء في كفر قاسم؟  
ومواكب الشهداء في لبنان، في الجولان، في سيناء، في بحر البقر؟  
ايقظت كل النائمين  
أزعجت كل الحالمين  
وأشعلت للبحيران قنديل الظفر

ويمكننا قراءة مأساة لبنان في قصائد أخرى لعبد البديع عراق، كقصيدة «هم المسيح المنتظر»، وقصيدة «أشباه الرجال» وغيرهما من القصائد.

ومأساة لبنان وضحت عن الشاعر محيي الدين عبد الوهاب من خلال قصيدة له بعنوان: «تل الزعتر»، والتل هو بداية المأساة في لبنان والمجزرة شاهد عيان على حقد الأيدي الخبيثة التي أشعلت النار في لبنان، وينقل لنا الشاعر في هذه القصيدة أبرز الأحداث التي عاشها المناضلون الفلسطينيون في جهادهم من أجل الحياة، ومن أجل الدفاع عن حقوقهم المنغصبة في كل المدن، وفي تل الزعتر. تكلم الشاعر عن المأساة بمرارة وحرقة، يقول محيي الدين في هذه القصيدة «أغنية للحياة في الموت».

أتخش المنية يا بن الزبير؟  
وهل في الحياة مكان أجل  
حنانك يا أم.. إني أخشى

إن مثلوا بي.. هل احتمل  
وهل يؤلم الشاة إن سلخوها  
وقد نبجوها.. وحم الأجل  
دمك الأحمر.. أحمر، أحمر  
من أحشائك.. يقطر، يقطر  
وردًا وحشياً يتفجر  
يزرع مجداً في لبنان<sup>(١)</sup>

الشاعر يستلهم موقفاً تراثياً خاصاً لأسماء بنت أبي بكر مع ابنها عبد الله بن الزبير، حينما خاف أن يمثل بجثته الحجاج، فقالت له أسماء: «وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها»، فهي تشد أزرها، وتشجعه فيما يصبو إليه، ويترك مخاوضه وراء ظهره لينطلق إلى الأمام.

ويواصل الشاعر وصفه المرير لمخيم تل الزعتر، حين تكالبت عليه قوى البغي والشر، دفقات دم الزعتر تكتب الحق، مملنة الثورة والتحدي، والموت من أجل الحياة، وحوار الشاعر مع تل الزعتر يمطي النص دفقاً في المعاني والألفاظ، وتجربة صاحب النص تظهر من خلال الأبيات، تجربة معاصرة الأحداث، ومعايشة المجزرة، فهو يتكلم عن واقع لمسه وآله، ومن داخل المخيم ينطق شمراً مسلحاً بالثورة، والدم، والحرية، يقول:

تل الزعتر  
احمل أحشائك وتقدم  
يا منبوذ القرى والدم  
تنزف في الساحة ما عندك  
روحك، دمك، تنزف وحدك  
جمدت أعصاب الجلاد

---

(١) محيي الدين عبد الوهاب: تل الزعتر: أغنية للحياة في الموت، الدار التونسية للنشر، ط١، ١٩٧٨م، ص ٩١، ٩٢.

وغصت شرفات قنناتك  
حكم، خصم  
يضرب، يحكم  
يطمن ظهرك وحياتك  
هذا أجمل عرض أخرج في ملههم  
في مأساتك  
فاسقط.. واسخر  
تل الزعتر  
زحف الخوف على الأطراف  
ووجمت في الظلمات وجوه  
رق القلب.. وجنّ النبض  
وظفك مات أبوه  
يا صمّت المقبرة الأسود.. اصرخ  
مات أخوه

يتابع الشاعر آياته طالباً الصمود من تل الزعتر، والقتال، وهنا نلمح حواراً ساخناً  
بينه وبين التل، يسقط فيه كل النجدات الخارجية، ويعتمد على الساعد القوي،  
والبندقية الزعترية داخل المخيم، والموت عنده آت لا محالة، والثأر نبراس الحر المقاتل،  
مثله مثل الموت الشريف الذي نصبوا إليه، سأحفر قبوري بيدي، داخل المخيم قبرنا  
جميعاً.. نموت من أجل الحياة، ثم لاحظ أفعال الأمر في بداية المقطع «احمل/ تقدم..»،  
والتي توحي بالنبرة الحماسية وعدم الخوف من القتال. ثم يقول:

قاتل، اصمد، ردّ وزمجر

يا مدفعنا القاني الأسمر

'نا خلفك

تل الزعتر  
قلت لهم: سأموت فصبراً  
ومأخذ ترابي قبراً  
لن أسألكم أبداً ثاراً  
قلت لهم.. فأرادوا موتي  
وأردت أنا موتاً آخر  
ليس هنا  
في تل الزعتر  
كان حياة.. كان مخاضاً  
يزخر بالعمل وبالكد  
يمسهر حتى الفجر ليصنع  
زيتاً للثورة والمجد  
كان يموج بأمل عارم  
أمل يحمل نصراً قادم  
كان يخطط.. كان ينفذ.. كان يقاوم  
لهفي يا عملاق الثورة  
يا ملحمة المنفيين  
يا أسطورة شعب تسطع نوراً فوق  
بيوت الطين

لاحظ الإلحاح على فعل الأمر في بداية المقطع من خلال الأضمار «قاتل/ رد/  
زمجر»، كما يلاحظ استحضار الماضي من خلال استخدام الفعل «كان» التي تكررت نحو  
ست مرات.

أما الشاعر أحمد بوس فيناجي بيروت مناجاة حزينة، مبيناً عمق المأساة التي أصابتها أثناء الحصار، وشدة الألم الذي ألم بمن بداخلها، وكيف أن العرب تخلوا عن بيروت الجميلة وقت محنتها؟ عبر الشاعر عن سخطه لكل من تجاهل بيروت أثناء الحصار، وذلك في قصيدته العمودية بعنوان «بيروت يا وجع العروبة» يقول فيها:

بيروت هل لي في الجراح عتاب؟	أم في الضفأة الذابلات جواب؟
بيروت كم فوق النهود تخمرت	أعناينا وتحطمت أكواب
بيروت وانتحرت شفاهك في دمي	وتحطمت فوق النهود قباب
العشق كان خديعة عربية	والعاشقون ضفادع وذئاب
كل المواسم أغلقت أبوابها	وتبرأت من نهدك الأنياب
بيروت.. يا وجع الشهامة هل أنا	وحدي تفرق دونه الأسباب
بيروت حتى الحب صار جريمة	في موطن أمجاده أسلاب
بيروت هل أبكيك أم أبكي على	شرف العروبة غيبوه.. وغابوا <sup>(١)</sup>

لاحظ أن الشاعر يبدأ قصيدته بالتساؤل الاستكثاري، ثم يكرر المحبوب «بيروت» نحو «مت» مرات في هذا المقطع، ثم يسخر ممن يدعي عشق العروبة «فالعشق كان خديعة عربية»، ولكن العاشقين/ العرب «ضفادع وذئاب»، لاحظ الضعف والاستكانة (الضفادع)، «المكر والخديعة والخسة» (الذئاب).

ويصورها - أي بيروت - في قصائد متعددة، ويورد لنا صورة مليئة بالحزن، هذا الحزن الذي عشت في صدره وأصبح عدواناً لكل فلسطيني، يقول مصوراً هول المأساة في قصيدة له بعنوان «دقوا على بابي»:

دقوا على بابي	بالسيف والخنجر
دقوا على صدري	هـبـفـيركـم أصفـر
دمي الفلسطيني	في جرحكم أزهر

(١) أحمد بوس: بيروت موسم النزيف، دار الجليل للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٥م، ص ٢١،

وأنا سـووى بيـرروت ما عاد لي مهـجر<sup>(١)</sup>

ويصور الشاعر لنا بيروت كالبركان حين انفجرت في وجه الغزاة الطامعين، فقلبت الموازين، وأصبح الجندي الصهيوني هو المحاصر بهمة رجال المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية.

بيروت لو حـرقوا لن يحرقوا الهدبا  
ها أرضك انفـجرت في وجههم غضبا  
من ذا يحاصـر آمن؟ فلنسال العـربا  
مبـا في سكوتهم ما يطفئ اللهيبا!!!

ثم يلوم الشاعر العرب الذين لم يهبوا لنجدة بيروت، بل راحوا يتفرجون عليها وهي تفتصب، يقول:

بيروت إن صـمتوا أو عبا أو الصـحفا  
مـيـان من سكتنا في البعد أو هتفا  
غـير النـما والمـيف لا ينفع الشـرفا  
بيروت يا جـرحا في قلبنا انفـجرا  
تـبقين شـامخة لو فـتتوا الحـجرا  
كل الجـراح لنا والنـفط للأـمرا  
لا تـرتجي أمـلا إلا من الفـقرا

في البيتين الأخيرين لاحظ (كل) الدالة على الشمول، (الجراح) الدالة على الجمع، بمعنى أنه ليس هناك جرح إلا وكان من نصيبنا، أي الشعوب المغلوب على أمرها، أما (النفط) فهو للأمرء فقط، ولا نصيب لنا منه، ثم كان البيت الأخير، تلك الحكمة البالغة:

«لا ترتجي أملا.. إلا من الفقرا»!!!

(١) المصدر نفسه ص ١١.

وفي قصيدته «موتي ونبس كل أثواب الحداد» يقول أحمد بويص مبينا بأن العرب لا يجيدون إلا الحزن، وربما يكون نفاقاً، وفي هذه القصيدة، والتي استوحاها من تاريخ السيدة عائشة ومعركة الجمل، مع الإمام علي (كرم الله وجهه) يبدأ بقوله:  
عائشه..

أوقدي الحرب.. «فصفين» استعادت

كل أوجاع الزمن

أو قلديها.. إن هذا الرمل مزق

كل أثواب الكفن

أوقديها «داحسًا..» «غبراء»

ما هم فطعم الموت واحد

سيرى.. فعين الله.. تتساک

وعين الموت ترعاك<sup>(١)</sup>

ويربط الشاعر في قصيدته بين موقعة كربلاء في العراق، وبين بيروت في لبنان، من حيث القتال العربي/ العربي، فيقول:

إني لا أقرأ فيك يا بيروت

تاريخاً بعيداً

أبكيك يا بيروت

هل يجدي البكاء

ما أنت أول مذبحه

تاريخنا قتل.. وتلكم كربلاء

يتابع أحمد بويص في حوارهِ مع بيروت: لأن المدينة، وإن قُصفت أو دُمّرت وسُفكت دماء أطفالها ونسائها، فهي أجمل المدن. ووضع عائشة كرمز لهذه القصيدة، هالأتان

(١) المصدر نفسه ص ١٨، ما يليق بشاعر أن يقول: «عين الله.. تتساک»، حتى وإن كانت لدلالة هبة!!

(عائشة/ بيروت) قد اتهمتا من قبل الأفاقيين ظلمًا وجورًا، يقول الشاعر:

عائشة...

أنيخي بميرك

ما عاد يجدي المسير

فكل الدروب سراب

وكل البلاد.. اغتراب

وكل الدماء.. شراب

وكل المواصم ما عاد فيها

سوى الموت ذلا

سوى الموت قهرا

سوى الموت خاتمة الأمنيات

هو الموت واحد

فلا تقلقي

وإن جزُ جيدك حد السلاح

فقيرك مات

بمضفة قات

وما زال يهدي

إلى القدس

بعضًا من الأمنيات

عائشة .

لا تقلقي إن رموك

بزيف الكلام

وفي قصيدة عمودية بعنوان «وأنا القتل» بين أحمد بوبس الحالة التي وصل إليها العرب.. حالة من اليأس والحزن والعار.. ويضرب لنا أمثلة من تاريخنا الإسلامي بأبطاله، مؤكداً أننا أصبحنا نقتدر لأولئك القادة في زمن مليء بالتناقضات والادعاءات.

هذي شرابيني حبال مشانق	وأنا على حبل الوريد قتيل
والنزف من دمي المباح شرابهم	وطعامهم جسدي به مجبول
غرسوا رماحهم بجرح مرارتي	لهباً تلظى والفؤاد غليل
والأرض أمطرت السماء بحقدما	فأزور حر.. وأستجير ذليل
في كل قلب ألف ألف هزيمة	في كل صوت بحة وعويل
وعلى امتداد الأرض موت دائم	هل كلنا في موت «هاويل»
ومن المحيط إلى الخليج عجائب	لا الفلسفات لها.. ولا التحليل <sup>(١)</sup>

لاحظ الإشارة إلى «هاويل» وما فيها من دلالة اختلاف الأخوة حتى استحر القتل بينهم، ثم لاحظ قوله: «من المحيط إلى الخليج»، وما فيها من إشارة إلى الدول العربية مجتمعة، ثم ينادي الشاعر القدس بصوت يح من الحزن وأمل ضعيف لتحريرها خاصة، ومؤلاء العرب لا تحركهم مأساة القدس ولا مأساة بيروت، وأصبح سلاحنا هو التمدد والشجب على ورق، ورتاء لمصائبنا بقصائد شعرية مبتورة.

صدت تواريخي.. ونؤت بحملها	ما عاد يجدي الشرح والتأويل
ما عاد «عمرو العاص» يسرح فاتحا	وأبو الفوارس بالطعان بخيل
بيروت تفرق في نزيف دمائها	وجهاتها موت.. فأين تميل
وسلاحنا ورق.. وحبير زائف	وقصائد مبتورة ورحيل
جف الكلام عن شفاة قصائدي	وتيس التجويد والترتيل
وطني.. لئن فجرت جرحك داميا	فلأن تاريخي دم مطول

(١) المصدر نفسه ص ٢٧.

ولأن أرضي أقحلت برجانها      صوت يجلجل، والنممال قليل  
ولأن قلبي صسار ألف مشوه      ما عاد يجدي قلبي التجميل!!

أما الشاعر صالح هوارى في قصيدته: «جيبك بوابتي للعبور» فيرسم صورة معبرة عن مأساة لبنان.. والشاعر يبدأ أبياته بالرقص والقنص والقتل.. ويتلاعب الشاعر بالألفاظ والمفردات، ويستخدم الحرف استخداماً فائق الجودة.. مما يدل على عمق شاعريته وعاطفته الصادقة.. ورموزه الموحية، وصوره العميقة.. يقول:

يبدأ الرقص...

من معطف الضوء يخرج سيف

ويبتدئ القنص

ذاك المفني على طريق الليل

مشتبه بماويله

بائع الورد

في شارع البرد

أضئ تبديل قمصانها

في مناديله<sup>(١)</sup>

وللشاعر صالح هوارى قصائد أخرى تصور المأساة وأبعادها الإنسانية، والقومية، نذكر منها قصيدة «اسألوا الأرض»... وغيرها .

ويكي الشاعر ماجد الشيخ حزناً في قصيدة له بعنوان «حوار الطلقات». يرقص مع الرصاص المزگرد، لا يخاف الموت، لا يخش الجراح، الأمل عنده كبير رغم الحصار.. حصار بيروت الحزين، متفائل بالمدافعين عنها؛ لأنهم الورد، والسنا النبي يضيء الطريق المظلم، بعد أن غاب الأصدقاء، وتخلي الأصحاب.. ولقد قسم قصيدته إلى مقاطع كل مقطع فيها يشرح وضفاً مستقلاً، لترسم القصيدة كلها حالة بيروت، ومخيماتها، والمدافعين عن كافة المدن اللبنانية، يقول:

---

(١) صالح هوارى: بطيئاً يمر الدخان، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨٤م، ص ١٦ .

وردة وسط الحصار تنمو

يكبر فيها البريق

وردة تماري دمنا

يضيء خلوط الطريق<sup>(١)</sup>

ويتابع الشاعر أبياته قائلاً ولانثماً من حوله، ممن وقف صامتاً:

تلك الأهازيج على جنتي الطامرة

ليست بحاجة للأهازيج أو لتدييح البيانات

هذي الجثة التي حملوها

لقمة الكيانات

رؤوس كيانات تعفنت

كانت البدء في تهيئ مساحات الذبح

تمهيد الأرض للخراب.

لاحظ إسقاطات الشاعر على النظم السياسية العربية، من خلال «تدييح البيانات»،  
«قمة الكيانات»، «كيانات تعفنت».

وصوت الشاعر الفلمطيني باسم النادي جاء مجلجلاً، وممبِراً عن الألم والجرح الذي أحدثه رحيل المقاومة الفلسطينية عن بيروت وصمودها أثناء الحصار الذي دام ثمانين يوماً دون مساعدة خارجية، تلقت الطعنات بصدرها، وسقط الشهداء، ورحل من دافع عن شرفها وعرضها.. وبعد الرحيل حدثت مآسي وفواجع يندى لها الجبين الإنساني، يقول باسم النادي في قصيدة له بعنوان «الرحيل»:

بيروت سيدة العواصم

للمت أشلاءها

جاءت إلى «المينا» تودعنا

(١) ماجد الشيخ: أجراس المتاريس، شركة كاظمة للترجمة والنشر والتوزيع - الكويت. ١٩٨٢م، ص

ترش دموعها  
لا ترحلوا قالت، وكان الموت سيد درينا  
وحصارنا  
كان اختبارًا للشعارات الجميلة والبنادق  
للتردد والقرار  
لا ترحلوا قالت  
وكان رحيلنا بدء الحصار..  
مليون أغنية  
ومليون احتضار<sup>(١)</sup>

يتابع باسم النادي مناجاته لبيروت الحبيبة قائلاً:

لك الاسم يا بيروت

من «صبرا»

إلى «صبرا»

و«صبرا» في النخاع

جودي عليّ بوردة جودي

فليس لنا سوى هذا الضياع.

وما زال الشاعر يحدثنا عن مأساة لبنان ممثلة بصبرا وشاتيلا، وما على شاكلتهما  
من مذابح، يقول:

«صبرا» العروس المرس

«صبرا» والألم

«صبرا» المسافة بين جرحى والندم

---

(١) باسم النادي: دخان البيوت، دار الصمود العربي للطباعة والنشر، نيقوسيا قبرص، ط١، ١٩٨٥م.

لا شيء يجميها من العقبان

إلا ظلك المكمور

فاعلنها معي

جئنا من الرمق الأخير

فنعلن التكفير عن أخطائنا

وازحف معي نحو البداية

لاحظ دلالة تكرار «صبراً» وما توجيهه، فهي المدينة الصامدة، وهي المذبحة الشاهدة

على عار الإنسانية، وهي بحروفها تعطي دلالة الصبر والثبات عند اللقاء.

وللشاعر أيضاً بعض القصائد التي تحكي المأساة اللبنانية بكل تفاصيلها ودقائقها،

أذكر منها قصيدة «المرايا والحصار»... وغيرها من القصائد.

